احاديث عذاب القبر

تواترت الأحاديث النبوية أن الإنسان إذا مات ووضع فى قبره جاءته ملائكة تمتحنه فيما قدم، فان كان من المؤمنين المصلحين لقى نعيما وسعادة، وإن كان من الكافرين أو الظالمين المفسدين لقى هنالك عذاباً نكراً، والعياذ بالله. روى لك فى أصح كتب الاسلام بعد كتاب الله، فى البخارى ومسلم، وعامة كتب السنة. ودل على ذلك أيضاً كتاب الله فى مواضع منه. ففى سورة نوح (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً). وفى سورة التحريم (فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) وفى سورة يس (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) وفى آخر سورة الواقعة إشارة إلى ذلك وفى سورة الأنعام (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) وقال أيضا (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب). وقد أمر المصلون أن يستعيذوا فى ختام صلواتهم من عذاب القبر. صحت فى ذلك الاحاديث. ورأى فريق من العلماء أن من لم يستعذ من عذاب القبر فى صلاته فصلاته غير صحيحة

وقد استشكل الذين يعولون على المادة والحس عذاب القبر،

وقالوا : إننا نشاهد الميت جثة هامدة : لا حراك ، ولا شعور ، ولا إحساس ، ولا أثر لشيء من ذلك . فكيف يناله ذلك ؟ أم كيف يمكن أن يصح ما ذكرت روايات عذاب القبر أن الملائكة يجيئون الميت ، ويقعدونه ، ويسألونه ، ويحاوبهم ، فان كان كافراً ضربوه بمطارق من حديد فالتقت أضالعه ، وإن كان مؤمناً لقى نعيما وروحاً وريحاناً . قالوا : ونحن لو حفرنا على الميت ما وجدنا شيئاً من ذلك ، بل لوجدناه جماداً لا يحس . قالوا : وهل هذا إلا مخالفة للمشاهدة والحس ؟ ولا نظن دين الاسلام . دين العقل والبرهان . يجوز مخالفة الحس والمشاهدة . فان الحس هو رسول العقل الذى يؤدي إليه الحقائق ، فلا يمكن الطعن فى الرسول وإلا لكان طعناً فى المرسل . قالوا : وهل هذا إلا نظير أن يقال : إن الجمادات والأحجار التى أمامنا تعذب ، وتشعر بعذابها ، وتنعم ، وتشعر بنعيمها ، وإنها تتكلم ، وتفهم الكلام ، وتروح ، ويجيء ؟ وهل مثل هذا يقرب من حدود العقل والصواب ؟

هذه شبهات على عذاب القبر ، تتردد فى صدور أغلب أهل هذا العصر ، وقد تتردد على شفاه فريق منهم ، وربما جعلوها مقادح فى الاسلام . أما المشفقون على دينهم ، الحريصون عليه ، إما التربية صالحة ، أو لصلاح فطرى فيغضون على ذلك إغضاء ، ويتأثمون من التفكير فيه ، كما يتأثمون من المباحثة فيه ، هروباً من الشك والبعد عن الايمان

ونحن نقول : إن هذه الشبهات لا تقع إلا في صدر من يحسب الانسان هو هذا الجسم المادى ، والهيكل الترابى ، الذى يذهب ويجيء ،

ويتغير فى اليوم مرات ، والذى يذهبه المرض والجوع ، وتأتى به الصحة والطعام والشراب الذى يتركب من الخبز ونحوه ، والذى يزيد وينقص . فالذى يحسب الانسان كله عبارة عن هذا فقد تجثم فى صدره هذه الشبهات ، وقد تقلق باله ، وتقضى على راحته . أما من عرف الانسان حقيقة ، العالم حقيقة ، الشاعر حقيقة ، المؤمن حقيقة ، المتألم حقيقة ، ذلك الأمر السماوى الروحانى ، ذلك الذى هو فوق المادة ، وفوق التراب ، الذى هو الروح ، تلاشت من حوله هذه الشبهات ، وتبددت ، ولم يجد فى الايمان بعذاب القبر ونعيمه غضاضة ، بل لم يجد بداً منه .

وقد أجمعت الأديان ، ولا أستثنى ديناً . وأجمع العقلاء ، ولا أستثنى عاقلا — إلا من لا يؤبه بهم — على الايمان بالعالم الروحانى ، وعلى الايمان بما وراء المادة . وقد ألف الحكماء الأقدمون من البراهين على ذلك الشىء الكثير ، وذكروا ما فيه مقنع لكل من طلب الحق . وقد كشف هذا العصر براهين جديدة قاهرة على ذلك .

براهين على وجود الأرواح

١ — قد أثبت العلماء أن جسم الانسان يتبدل فى حياته عدة مرات . ففى كل بضع سنين يتحلل ويحىء غيره مكانه ، ومعلوماته هى هى لا تذهب ، ولا تتحلل ، ولا ينسى ما علم فى الصغر . وفى هذا برهان ضرورى على أن فى الانسان شيئاً غير هذا الجسم المتحلل المتناثر فى كل بضع سنين ، يحفظ تلك المعلومات القديمة ، وإلا لتلاشت مع الجسم

المتلاشى الفانى ، وإلا لما بقى عنده شيء من معلومات الصغر وهذا واضح .

٢ — وقد أثبتوا الأرواح أخيراً إثباتاً لا يقاربه الخلاف ولا الجدل فقد استحضروها ، وكلموها ، وكلمتهم ، وفهموا منها ، وفهمت منهم . وقد صار استحضار الأرواح اليوم علماً مدروساً ، وخبراً متواتراً لا ينازع فيه . وهذا يثبت العالم الروحانى ، سواء أقيل : إن تلك الأرواح هى أرواح من يخاطبون ، أم أرواح شياطين ، فهو على كل حال برهان واضح على العالم الروحانى .

٣ — ولقد أصبح الايمان بما وراء المادة أمراً ضرورياً لا يحاول جحده إلا أهل السفسطة والهرقطة . فان هذه الاحساسات ، والعلوم ، والارادات والصناعات بأنواعها المختلفة الكثيرة ، التى لا تحد ، ولا تقف عند حد لا يمكن ان تكون كلها للجسم . فان العلوم وأنواعها ، والصناعات وأنواعها ليست لها نهاية ، ولا يقدر أن تحد . والجسم محدود متناه ، صغير الحد ، قريب النهاية ، فلا يمكن أن يقع ما لا يتناهى من المتناهى

٤ — وان كل انسان يؤمن باحساسه ، وشعوره ، وإدراكه ، وحياته ، ورضاه ، وغضبه ، وكل انفعالاته . وهذه كلها ليست مادية ، ولا من عالم المادة . إذاً هنالك عالم موجود فوق المادة ، وفوق حدودها ، وفوق حدود الحواس الخمس

٥ — وهذا العالم المادى المنظم أحسن التنظيم ، البالغ الغاية فى الاتقان ، على ما فيه من حركات قهرية واختيارية لا يمكن ان يكون ذلك

من تدبير المادة ، وحكمة المادة . وإن المادة لأضعف من ذلك

٦ — ولولا الأرواح أو ماوراء المادة لما وقع كل هذا التفاوت بين أفراد الانسان ، وبين نوع الانسان ، وانواع الحيوانات . فلا يمكن أن يكون هذا التفاوت العظيم فى المعارف والعلوم ، والكرم والشجاعة ، وسائر الصفات ، فى هذه المخلوقات منشؤه تفاوت الأجسام واستعدادها وقد تجد الأضعف جسما هو الأقوى فهماً وعلماً ، والعكس بالعكس ومادة الاجسام واحدة ، مركبة من عناصر متساوية

٧ — وان كل إنسان يقول (أنا) يعلم ضرورة أنه لا يقصد بهذه الكلمة (أنا) هذا الجسم المادى المركب مما ركب منه جسم الفرس والهر والجمل والوحش ، وانما يعنى بقوله (أنا) أمراً فوق ذلك ، وأشرف منه ، هو الروح .

٨ — وقد تواتر عند سائر الأمم ، مؤمنها وكافرها ، أنه قد وجدت خوارق كثيرة على أيدى كثيرين من الأنبياء والأولياء والسحرة والعرافين والدجالين . هذه أشياء تواتر وجودها بالجملة ، وهى لا يمكن أن تكون من عمل المادة وحدها فان ذلك خارج عن ناموس العالم المادى

٩ — وانى أعلم ، وأنا أكتب ما أكتب ، أن هذا الذى أكتبه ، وأصنفه ، وأشعر به ، وأحسه ، وينطوى عليه جسمى من أمل فياض ، وارادات لا نهاية لها : أعلم أن هذه الأمور ليست لجسمى هذا الترابى النحيل . انى أعلم ذلك ضرورة . وكل أحد فيما أعلم يجد ما أجد .

وأعرف أن ذلك لشيء قد انطوى عليه جسمي ، أو انطوى هو على جسمي ، وهو ليس ماديا .

١٠ — وان موت الانسان وحياته برهان لا ينازع على العالم الروحاني وإلا فلماذا يفقد الحي مرة واحدة ، في لحظة واحدة ، جميع معلوماته ، وشعوره ، وحركاته . وكل شيء يكون بالحياة . يفقد ذلك كله بأهون الأسباب بمجرد ضربة ، أو لسعة ، أو خنقة ، ثم لا يمكن إعادة هذه الأشياء ولا بعضها إلى هذا الحي الذي فقدها ، إن هذا شأن فوق شأن الماديات . فلا بد أن يكون في هذا الجسم الذي نقول عليه «مات» شيء يفارقه . فاذا فارقه قلنا : إنه مات ، وإذا سكن فيه قلنا : إنه حي

وبالجملة فالبراهين على العالم الروحاني لا يحصرها حاصر

وإذا ما عرف الانسان هذا العالم الروحاني الذي هو فوق الحواس ، ووراء المادة سهل عليه الجواب عن الاشكالات على عذاب القبر ونعيمه ، وعلم أن موت هذا الجسم الترابي ليس بمانع أن تعذب الروح ، وأن تنعم ، وأن تسعد وتشقى ، وإن لم ير ذلك ، كما لا يرى الروح نفسها ، وأنه إذا لم يبصر هذا العذاب والنعيم لم يكن دليلا على فقدهما في الواقع . كما انه لا يرى الأرواح ذاتها ، ولم يكن ذلك دليلا على عدمها . وكما لم يعد عدم رؤيته لعقله وفهمه ، وشعوره وإدراكه ، ورضاه وغضبه ، وسائر انفعالاته دليلا على فقدان هذه الأمور في أنفسها . ومن حسب عدم احساس الأمر برهانا على عدم الأمر نفسه قال : إن هذه غير موجودة لأنها غير محسة . وهذا خلاف اجماع العقلاء

وشيء آخر . وهو أنه ليس كل مالا يحس بأحد الحواس فهو مفقود ، غير موجود . فقد مضت قرون وقرون والناس لا يحسون هذه المخلوقات الحية الحيوانية التي تقضي على حياة الأحياء التي نسميها « ميكروبات » حتى خلق الله « الميكرسكوب » فأحسوها وعلموها ، وما كانت قبل أن يخلق هذا « الميكرسكوب » فتبصر وتحس مفقودة في الواقع ، ولا كان جهلهم إياها برهانا على فقدها . ولن تكون غير موجودة الآن لو لم يوجد « الميكرسكوب » . والعلماء اليوم يقررون أن من هذه « الميكروبات » ما هو فوق « الميكرسكوب » وفوق الاحساس والابصار ، ولكنهم لا يرتابون في وجودها ، مستدلين بآثارها ، وبفتكها بالأحياء ، وما نفوها إذ لم يحسوها ويبصروها . إذاً من الموجودات المادية مالا يحس ولا يبصر . وإذاً لا يصح لنا أن نكذب أخبار الصادقين إذا ما حدثونا بأمور هي فوق إحساسنا البشري ، وإذاً لا غرابة ولا محال في عذاب القبر وإن لم نره

وشيء آخر . وهو أن علماء العصر يقررون أن النطفة المنوية مملوءة بالحيوانات الحية المتحركة . ونحن لا نحس ذلك ولا نبصره ، ويقررون أن هذه الحيوانات المنوية تعذب وتنعم ، وتموت ، وتقتل ، وتمشي ، وتروح ، وتجيء ، ولا نرى من ذلك شيئاً . وقد كان هذا باطلا ومحالا قبل أن يخرج « الميكرسكوب » . إذاً لا يجوز تكذيب الأمر اعتماداً على عدم إحساسه ، ومن فعل ذلك كان غالطا ، كما كان غالطا من كذب

بهذه الحيوانات المنوية ، لأنه لم ينظر بالميكرسكوب ، أو لأن الله تعالى لم يخلق الميكرسكوب .

وشيء آخر . وهو أن علماء النبات حققوا أن للنبات شعوراً بالآلام وبالموت ، وحققوا أن له تنفساً ونفساً . فما لنا ننكر مثله للاموات أو للأرواح التي انتقلت من دار إلى دار ؟ ! هذا عين الغبن في التفكير . إن النائم الذاهب في النوم إلى حد الهمود قد يكون في جسمه وفي دمه ودمه من الحيوانات والأمراض ما يمزق لحمه ، ويمتص دمه ، وينخر عظامه ، وما يتقاتل على مافيه من غذاء ، وهو خامد هامد أمامنا ، لا نشعر بشيء من ذلك ، ولا نرى شيئاً منه . وما قلنا : إن هذا باطل لأننا لا نحسه ولا نراه . وإن النائم أيضاً قد يجد أشد الآلام ، ويعاني العذاب النكر ، وهو نائم ساكن ، لا حركة ولا تألم ، ونحن لم نر من ذلك شيئاً . وقد يرى أنه يضرب ويعذب ، فيقوم فزعا منفجعاً . وقد يجد في بدنه مواقع الإيلام والضرب . وما أنكرنا شيئاً منه لأننا لم نبصره . بل قد يكون الانسان في أشد العذاب في نفسه وجسمه ، وهو جالس أمامنا كأنه ليس به شيء ، وكأنه لا يحس شيئاً

إذاً فالشبهة على عذاب القبر — وهي أننا لا نشاهد هذا العذاب — شبهة داحضة . وما قال عاقل إن الموجودات منحصرة كلها في المحسوسات وإن ماليس محسوساً ليس موجوداً .

لنفرض أن الله لم يخلق للانسان حاسة السمع فلم يسمع مسموعاً فهل يكون فقداننا للمسموعات دليلا على عدمها ، وعلى أنها غير

موجودة ؟ ! اللهم لا . وهل الأصم — وهو بيننا كثير — ينكر وجود الأصوات ؟ ! إن إنكار الأصم للأصوات لأنه لم يسمعها كانكار هؤلاء عذاب القبر لأنهم لم يحسوه ولم يروه . . أو لنفرض أن النوع الانسانى خلق فاقد الحواس الخمس . فلم يحس شيئاً من الموجودات ، لا سمعياً ، ولا مرئياً ، ولا مطعوماً ، ولا ملموساً ، ولا مشموماً ، فهل تكون هذه الأشياء غير موجودة لأنه لم يحسها بحواسه الخمس ؟ ! وهل يكون فقده لحواسه دليلا على فقد ما يدرك بها ؟ ! اللهم لا . وإذاً لا يكون عدم إحساس هؤلاء لعذاب القبر دليلا على فقده فى الواقع

ليتريث هؤلاء المولعون بالإنكار والجحود ، وليصغوا إلى ماقدمنا فان فيه مايقنعهم . إننا لو قلنا قبل أن يخرج هذا الميكرسكوب إن الجو والهواء مملوء بالنسمات الحية التى تحدث أنواع الأمراض ، والتى تفترس الأحياء افتراساً لما صدقنا أحد ، ولما أمكن أن يؤمن بذلك أحد

والخلاصة أن القارىء إذا عرف أمرين — ولا بد له من معرفتهما — هانت عليه مشكلة عذاب القبر ونعيمه سواء أكان روحانياً جسمانيا أم روحانياً فقط : إذا عرف العالم الروحانى ، واعترف به . وما قدمناه يكفيه بأن يعترف . ومن الأمور البدهية أن هذه الحركة فى الكون ، والنظام العجيب الذى هو دائب عليه ، لا بد أن يكون مصدره أمراً غير مادى . وعرف أنه ليس كل موجود فلا بد أن يحس ويرى . بل الوجود أوسع دائرة من الاحساس . وبهذا يصير عذاب القبر ونعيمه من المسائل الواضحة ومن القضايا التى لا بد من الايمان بها .

لولا بنو اسرائيل لم يخنث اللحم

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله أنه قال «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»

الاخناز هو التغير والفساد . ويفسر هذا الحديث بعض الناس بأن اللحم كان قبل بنى اسرائيل لايخنز ولا يفسد ، وإن ترك أزماناً ، أى إن طبيعة اللحم كانت غير قابلة للفساد . ثم إن الله عاقب بنى اسرائيل بذنوبهم وبطرهم حين ما كان ينزل عليهم المن والسلوى ، فتغيرت طبيعة اللحم وصارت إلى الفساد والاخناز إذا ماترك اللحم . قالوا : والله يعاقب على المعاصى كثيراً بالعقوبات الدنيوية ، والمصائب فى الأموال والطعام والشراب . وكذا قالوا : إنه لولا حواء وعصيانها واكلها من الشجرة المحرمة لما عصت امرأة ، ولما غررت بزوجها . والمراد بالخيانة هنا أنها سولت لآدم أن يأكل من الشجرة لا أنها خانت فى عرضها . كلا . والمعنى على هذا أن الله عاقب النساء بعصيان أمهن حواء فجرين على آثارها ، وعصين كما عصت عقوبة وجزاء .

وهذا القول بعيد من الشرع ، بعيد من الصواب ، لا يجوز حمل الحديث عليه ، ولايجوز الذهاب اليه . فان هذا مثل أن يقال : إن النار كانت فى زمن بنى اسرائيل لا تحرق ، وإن الماء لا يروى ، والطعام لا يشبع ومن يقبل هذا ؟ ! إذاً ما معنى هذا الحديث ، وما تأويله ؟

فأقول : القول الحق ، والرأى الصواب فيه ، هو ما بعث به الينا

حضرة عالم السنة ، ومحيي مذهب السلف في دمشق الشام، الاستاذ الرقيق العلامة محمد بهجة البيطار . وقد سألناه عن الحديث كتابة ، فأرسل الينا الجواب كتابة

جواب الاستاذ البيطار

قال حفظه الله « لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم . الظاهر المتبادر الذي أفهمه منه أن البركة في الانفاق ، وأن المحق في الامساك ، وأن بني اسرائيل كان يأتيهم رزقهم من السلوى كل يوم فيأكلونه لحماً طريا ويوسعون منه على غيرهم . فلما شحوا به وادخروه ، عوقبوا بفساده وخبثه ونتنه ، ولعلهم كانوا أول من سن هذه السنة السيئة في الناس ، أو اشتهروا بها أكثر من غيرهم ، وكانوا قدوة سيئة لمن جاء بعدهم بحكم الوراثة والتقليد

« فالكلام على مايظهر لي هو في عمل بني اسرائيل في اللحم ، لا في طبيعة اللحم من حيث هو لحم ، وأنه لولاهم لما ادخر ، ولولم يدخر لم يفسد والله أعلم .

« وأما خيانة حواء لزوجها فيما بدأت به وزينت له من الأكل من الشجرة المنهي عنها . فالخيانة اسم جنس شامل لجميع أنواعها ، وتزيين حواء لآدم الأكل من هذه الشجرة الضارة هو نوع منها . ثم توسعت بنات حواء في الخيانة وارتكبن منها كل قبيح كما هي عادة البشر وطبيعة

المجتمع فى التفنن بكل نافع وصار على تراخى الزمن ، وتجدد الشئون ، واشتداد البواعث ، وتولد المصالح والمفاسد ، وتنوع البشر إلى غوى ورشيد ، وانقسامهم إلى شقى وسعيد ، وابتلائهم بسوء التربية وفساد العشرة والتقليد .

« وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد »

انتهى جواب الاستاذ البيطار .

وهذا وربك هو الجواب الذى لا متأخر عنه ولا متقدم ، وهو الجواب الذى تقبله عقول الشباب المتعلم ولا يأباه السواد الأعظم المتعمم ، وهو الجواب الذى يمشى مع الثقافتين الصفراء والبيضاء .

وبيان كلام الأستاذ حفظه الله أنه قد يكون ادخار اللحم الذى يترتب عليه فساده وإخنازه مجهولا للأمم قبل بنى اسرائيل ، لم يعتادوه ولم يعرفوه ، كما قد تكون طرق كثيرة لادخار اللحم وحفظه مجهولة الآن لأمم عظيمة ، وإن كانت معروفة لأمم أخرى . والأمم الآخذة بآفاق الحضارة اليوم تعرف طرقا لادخار اللحوم على اختلافها ، وادخار سائر الأطعمة لا تعرفها الأمم البدوية أو الناشئة فى الحضارة ، فكانت الأمم قبل بنى اسرائيل لا تعرف أن اللحوم تخزن وتدخر ، فما كانت تفعله ، فما كان الفساد ولا الاخناز يتناوله . فلما جاءت بنو اسرائيل ورغس الله لهم النعم والآلاء رغسا ، وصب عليهم خيراته وبركاته ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وهى أنواع من لحوم الطير الفاخرة ، تأتيهم صباح مساء ، لم يكن شكرهم لهذه النعم التى فضلهم بها على العالمين إلا

الكفران ، والامساك ، والشح ، الذى لاداعى له إلا النحازة وسوء الجبلة ، بخلوا وخافوا انقطاع ماهم فيه من النعم ، ففكروا فى الادخار ، فهداهم شحهم وهلعهم إلى أن خزنوا المأكولات وخزنوا المن والسلوى فأصيب بالفساد والاخناز شأن اللحوم . ولا تنس أن القوم كانوا جاهلين ولا بد طرق الادخار التى يبقى معها اللحم سليما من الفساد ، لأن الناس لم يتسعوا إذ ذاك فى فنون الامساك وفنون المأكولات سنة النشوء والارتقاء

هذا ما كان من بنى اسرائيل . فجاءت الأمم بعدهم ، وأخذت مأخذهم فيما ابتدعوا وشرعوا من امساك وادخار . فادخر الناس اللحوم فأخنزت كما هى الحالة اليوم ، وهذا يشبه قوله عليه السلام « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذلك لأنه أول من سن القتل » وهذا الحديث شبيه بأن نقول : لولا الفرنج لما طار العراقيون والحجازيون والمصريون بالطيارات ، ولما تخاطبوا وبينهم المسافات التى تهلك فيها الأشواط والأصوات . ولا تلازم فى هذا بين الأول والثانى إلا اختراع الأول ما تمكن به الثانى أن يفعل . وهو تلازم عادى لا عقلى ، وكذلك لا تلازم بين بنى اسرائيل وإخناز اللحم إلا اختراعهم ما به تمكن اللحم من أن يخنز وهو ادخاره . هذا معنى كلام الأستاذ حفظه الله فى الشطر الأول من الحديث وهو « لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم »

وأما الشطر الآخر من الحديث ، وهو « ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » فبيان قوله فيه حفظه الله أن طبيعة النساء واحدة ، واستعدادهن واحد فى الخلقة والقابلية ، لافرق بين حواء وغيرها من اللائي جئن

بعدها . وقد خلقت حواء وهى أم النساء قابلة للخيانة والخطأ ، فخلقت بناتها مثلها فى ذلك الاستعداد والقبول ، وفى تلك الخلقة والطبيعة ، لا تفاوت بين أفراد النساء فى ذلك . ولو أن حواء خلقت غير قابلة لذلك لما وقع منها شىء مما ذكرنا لأنها غير قابلة له كما خلقت الملائكة غير قابلة للعصيان ولكانت بناتها غير قابلات ولا مستعدات لشىء منه ، فلم يقع منهن شىء ، لأن الطبيعة واحدة . وعلى هذا قيل « ولولا حواء ما خانت امرأة زوجها » أى لو خلقت غير قابلة للخيانة لكانت بناتها مثلها غير قابلات للخيانة ، وإذا لم تكن حواء ولا بناتها قابلة للخيانة لم تقع منهن وهذا بين

والحديث يشرح نظرية من نظريات علم النفس هى أن الاستعداد الفطرى فى النوع الانسانى واحد فى الجديد والقديم . فاستعداد الانسان الفطرى فى القرون المظلمة الوسطى مثل استعداده فى القرن العشرين . واستعداد الشرقيين المغلوبين على أمرهم المستعمرين من جميع نواحي الاستعمار مثل استعداد الألمانيين والفرنسيين والانجليز . وإنما يكون التفاوت والاختلاف بالمحيطات والبيئات الحاكمة على الانسان ويكون أيضاً باستعمال الاستعداد وهجرانه . ولو أننا أخذنا طفل أعلم فليسوف انجليزى ووضعناه فى أحضان أمة عريقة فى الجهالة والتأخر لجاء ذلك الطفل مثلهم جاهلا متأخراً . ولو أخذنا طفلا من هذه الأمة الجاهلة ووضعناه فى بيت ذلك الفيلسوف الانجليزى لجاء متعلماً مهذباً ، وربما فاق فلاسفة الانجليز أنفسهم .

هذا هو بيان كلام الأستاذ ، وهذا هو معنى الحديث وشرحه .

الشيطان يجرى من الانسان مجرى الدم

روى البخارى ومسلم عن أم المؤمنين صفية بنت حيي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » ورواه مسلم من حديث أنس بن مالك

وقد يستشكل هذا الحديث من يتحكم فيه الحس ، ومن يصعب عليه أن يؤمن إلا بما وقع عليه بصره ورآه بكلتا عينيه ، ويقول : كيف يدخل الشيطان فى أجسامنا ونحن لا نشعر به ؟ أم كيف يدخل جسم فى جسم ؟ بل قد يشك فى وجود الشيطان لأنه لا يراه .

هذا ما يقع فيه كثير من الناس الذين لم يعرفوا من العلوم إلا أنهم سمعوا أن العالم العصرى المثقف هو الذى لا يثق بشىء قالته الأسلاف أو جاءت به الديانات إلا أن يلمسه بكلتا يديه أو يسمعه بكلتا أذنيه

ولكن إذا علم هؤلاء أن الروح جارية فى الجسم كله مجرى الدم — وقد ذكرنا فى عذاب القبر براهين علمية على الروح — سهل عليهم أن يؤمنوا أن الشيطان يجرى في الانسان مجرى الدم ، وأنه يستطيع ذلك كما تجرى الروح فيه كذلك ، وهم لا يحسونها ولا يبصرونها . واذا علموا أن الافكار والآراء والانفعالات كلها تجرى فى جسم الانسان وهو لا يحسها ولا يبصرها ، هان عليهم أن يجرى الشيطان من الجسم مجرى الدم وان كان لا يحسه ولا يبصره . واذا عرفوا أن الميكروبات القتالة تجرى فى جسم الانسان وفى دمه ولحمه ، وهو لا يحسها ولا

يبصرها ، بل ولا يعلم بها لو لا الميكرسكوب هان عليهم أن يؤمنوا بأن الشيطان يستطيع أن يجرى فى جسمه كما يجرى الدم ، ومن انكر جريان الشيطان في الجسم ، أو أنكر الشيطان لأنه لا يحسه كان كمن أنكر الميكروبات لأنه لا يحسها ، لأنه لا ميكرسكوب عنده ، أو لأنه لا يريد أن يرى ذلك

فان لم يكفهم هذا قلنا : هذا الهواء وهو جسم مركب من عناصر مادية يجرى فى الاجسام ويلج فى مسامها ، ونحن لا نحسه ولا نراه ، فكيف لا يقدر على مثله الشيطان ؟!

وان لم يكفهم هذا قلنا : هذا الماء يجرى فى أجسامنا ، وفى دمائنا ، ويخرج من مسام الأبدان ، ويرشح عرقا ، ونحن لا نحس خروجه ولا جريانه .

فان لم يكفهم هذا كله قلنا لهم : إن خلقة الانسان تقضى بأن يجرى الشيطان فيها وأن يستطيع ذلك وإن لم نشعر به فان الغذاء والماء الذى نشربه ونأكله يجرى فى أجسامنا ولا يشعر أحد منا بذلك ، وكذلك الدم يفرقه القلب على أجزاء البدن ، فيجرى فيها ونحن لا نحس جريانه فما الذى يمنع أن يكون الشيطان يجرى كذلك وإن لم نحسه

فان لم يكفهم هذا قلنا لهم : هذه الكهرباء الكامنة فى الكون السارية فى جميع الأجسام ونحن لا نحسها ولا نبصرها إلا فى حالة مخصوصة ، وقد ذهبت القرون تلو القرون ، وهذا العالم الكهربائى

لا يعلمه أحد ، ولا يهتدى إليه أحد ، مع أنه جار سار فى الأجسام المحيطة بنا ، بل وفى أجسامنا أيضاً . ومثل الكهرباء الأثير

إذاً لاعذر لمن أنكر أن يكون الشيطان موجوداً ، وجاريا فى الأجسام ، محتجاً بأنه لايراه ولا يبصره بعد ذلك كله . ومن ناكر وجاحد بعد ما اسلفنا فهو من الذين يعشقون المجاحدة والمناكرة وهذا القسم من الناس لاحيلة فيه إلا الاعراض عنه والدعاء له .

احاديث انشقاق القمر

روى البخارى ومسلم ومن لانحصيه من المفسرين والمؤرخين والجامعين لعلامات النبوة من طرق عديدة لاتقدر على إحصائها ، عن رجال عدة من صحابة رسول الله ﷺ : أن القمر انشق فى عهده عليه السلام فى مكة فرقتين لما كذبه المشركون وطلبوا منه آية وقال ﷺ « اشهدوا »

وقد اشتهرت هذه المعجزة فيما بين المسلمين اشتهاراً كثيراً ، وامتلأت بها الكتب ، وتعددت طرقها . حتى قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره وقال غيره : إنها متواترة . ونقل اجماع العلماء على وقوعها لم ينقل خلافاً ، وكذلك ابن جرير والبغوى وغيرهما من مفسرى السلف والأثر لم يذكروا فى ذلك خلافاً

وقد ظاهر هذه الأحاديث المتواترة القرآن ، فقال الله تعالى فى أول سورة القمر (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية

يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر)

وقد سميت السورة التى فيها هذه الآيات سورة القمر لعظم ذلك وشهرته . والآية صريحة فى أن القمر انشق فعلا له عليه السلام ، وأن المشركين لما رأوه كذبوا وأعرضوا وقالوا إنه سحر مستمر ، وصريحة أيضاً فى أن انشقاق القمر من الأمور التى فيها مزدجر للمكذبين ، وأنها من النذر العظيمة ، ولكن النذر لاتنفع من لم يرد الله أن يهديه حكمة منه بالغة فما تغن النذر

والآية تدل على وقوع هذه المعجزة فى الماضى من وجوه كثيرة :

أولها — أن الفعل ماض وهو (وانشق القمر) . والعرب وضعت الفعل الماضى لما وقع بحيث لايفهم عند الاطلاق وانقطاع القرائن غير حصوله فى الزمان الغابر ، ولا يريد القائل غير الماضى إلا أن يكون مدلساً ملبساً ، أو يضع قرينة فى كلامه تبين ما أراد ، أو يكون هنالك قرينة . فاذا ماقال قائل : « سافر فلان . وهلك فلان » لم يفهم منه غير أن ذلك قد وقع فعلا . واذا قال القرآن (ولقد أرسلنا نوحاً) وابراهيم وموسى وعيسى وفلانا وفلانا من الأنبياء الى أقوامهم فقالوا : لهم كذا وكذا لم يفهم السامعون غير أن ذلك قد وقع فى الأزمان الذاهبة . وكذلك إذا قال (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك) وقال (وأوحينا إلى أم موسى) وقال (وإذ أوحيت إلى الحواريين) وأمثال ذلك فى القرآن لم نفهم منه الاستقبال . ومثله قوله (اقتربت الساعة وانشق القمر)

يجب أن نفهم أن ذلك قد حصل فعلا ، كما أنه اذا قال : سوف يكون كذا وسوف أفعل كذا كان المراد أن ذلك لم يقع بعد ولكنه سوف يقع . وكذلك إذا قال امرؤ القيس أو غيره من الشعراء : « فعلت » وجب أن يكون ذلك ماضياً .

وإذا أريد بالفعل الماضى الاستقبال جيء بقرينة فى الكلام خارجية صريحة . فمثلا لما قال الله تعالى (أتى أمر الله) وكان مراده الأمر الذى لم يأت . قال (فلا تستعجلوه) فقوله (فلا تستعجلوه) دليل على أنه أمر لم يحصل بعد . ونظائر ذلك فى القرآن والكلام كثير

هذه هى طريقة الكلام التى قام عليها التفاهم والتخاطب بين الناس ، وعلم بها بعضهم مراد بعض ، وبنوا عليها أحكام دينهم ودنياهم وعلومهم وآدابهم وتواريخهم وعلى ذلك آخذوا وعاقبوا . وأما أن يصمد الصامد الى الفعل الماضى فيقول : إن هذا يراد به الآتى ، ويصمد الى الفعل الآتى فيقول : إن المراد به الماضى اعتباطا وبلا دليل فهو أمر يفسد الحقائق وقانون التخاطب والتفاهم ، ويجعل الكلام غير مفهوم المراد ، كثير التضليل . وعلى ذلك لزم أن نفهم أن قوله (وانشق القمر) فعل ماض وأن القمر قد انشق حقيقة معجزة لرسول الله ﷺ

فان قلت : الأمر كما تذكر ، فالفعل ماض والقمر قد انشق فى زمنه عليه السلام ، إلا أنى أخالفك فى معنى انشقاقه فأزعم أن معنى انشقاقه هو وضوح الأمر وبينونته ، وهو كناية عن ظهور صدق رسول الله ﷺ وظهور رسالته

قلت : من الباطل ضرورة من لغة العرب التي يجب تنزيل القرآن عليها أن يقال (انشق القمر) على أن يكون المعنى وضح الأمر وبان وصعود هؤلاء الى القمر أسهل عليهم وأقرب اليهم من أن يدلوا بكلمة واحدة من كلام العرب تعبر بانشقاق القمر عن وضوح الأمر . ولو قال قائل : انشق القمر ، وكان يريد بقوله وضوح أمر يعنيه ، أو وضوح الدين لكان ملغزاً معمياً بل مدلساً ملبساً . وليس بنافع هذا القائل المحسّن لهذا التفسير أن يكون بعض الناس قاله أو ذهب اليه . فكم من أقوال باطلة ضرورة باعتراف هذا المحسن في اللسان والدين والمعقولات . وأحسب أن هذا التفسير من تفاسير الباطنية ، فانهم يفسرون القرآن تفسيراً باطلا بداهة ، ويزعمون أن اللغة تناصره . ومن تفاسيرهم أن الصلوات الخمس عبارة عن أسماء أشخاص ، وكذلك يفعلون بالحج والزكاة والصيام وسائر أسماء الدين ، ويدعون أنهم لم يخالفوا اللغة ولا الدين . فهل ينفع مفسر انشقاق القمر بوضوح الامر أن يقوله قائل ، أو يكتبه كاتب ، أو يطبعه طابع ؟!

ثم لا أظن بلاغة القرآن تسمح أن تقول (اقتربت الساعة) ووضح الأمر (وإن يروا آية يعرضوا) فأى تناسب بين هذه الأجزاء ، وأى اقتراب بين اقتراب الساعة ووضوح الأمر

ثانيها — لئن جاز أن تؤول هذه المعجزة ، وهى انشقاق القمر ، ليجوزن أن تؤول معجزات الانبياء الواردة فى القرآن . وجاز أن يصل التأويل الى ماذكره القرآن من أن عيسى كان يحيى الموتى ويبرىء

الابرص والاكمه ، ويكلم الناس فى المهد . وأن يصل التأويل الى عصا موسى ويده ، والى ناقة صالح ، والى القاء ابراهيم فى النار ونجاته منها ، والى القاء يونس فى بطن الحوت ، والى معجزات داود وسليمان الكونية العجيبة . فاذا لم يكن من الصعب تأويل انشقاق القمر لم يكن منه تأويل معجزات هؤلاء الانبياء . وقد أولها قوم ورد عليهم هذا الذى أول انشقاق القمر ، وأوسعهم ملاماً وتضليلا . فهل يصعب أن يقال : إن إحياء عيسى للموتى عبارة عن هدايته الضالين الكافرين ، وإنه كان يبرئ الابرص والاكمه بمهارته فى الطب ، أو يكون المراد بالأبرص والأكمه فاسدو الأخلاق ، وابراؤهم عبارة عن تقويمهم . وهكذا الى أن نأتى على بقية المعجزات

إن من جوز تأويل انشقاق القمر أو أوله فملا لزمه ذلك لامحالة . ونحن نعلم مع مؤول انشقاق القمر أن هذا فاسد بالإجماع والضرورة .

ولا أظن هذا المخالف يخالف أن قوله (وانشق القمر) مع الأحاديث المروية فيه أدل على ما نقول من قوله فى عيسى إنه كان يحيي الموتى ، ويكلم الناس فى المهد على ظاهرها

ثالثها — كل الآيات التى بعد الآية المذكورة تدل دلالة صريحة على أن المراد أن القمر قد انشق حقيقة معجزة له عليه السلام . وهاك الآيات : (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ،

ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر) إلى آخر السورة

أفليست الآيات كالتصريح بما نقول ؟ ! وهل يكون سياقها منتظماً متسقاً إلا إذا كان المعنى كذلك ؟ ! أوليس قوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وقوله (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر) برهاناً قاهراً وتصريحاً واضحاً ؟ ! وإلا فأى تجامع فى أن يقول : اقتربت الساعة وسينشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا إلى آخره ؟ أو يقول : اقتربت الساعة ووضح الأمر إلى آخره ؟ ألا يكون هذا الكلام مفككا ضعيف التأليف ؟ !

وقد اعترض هنا بعض المنكرين وقال : لو كان المعنى ما تذهبون اليه لقال : فأعرضوا إلى آخره أى لجاء به فعلاً ماضياً . وهذا الاعتراض ليس بالقوي ، لأن المعنى فى الآية أنهم كلما رأوا آية أعرضوا وكذبوا فالتكذيب والاعراض دأبهم ، وهذا ما يدل عليه الفعل المضارع فانه يدل على الاستمرار والتجدد كما نقول : فلان يرشد الناس . أما الفعل الماضى بأن يقول : فأعرضوا وقالوا فلا يدل على هذا المعنى ظاهره والمعنى من مقاصد الآية . ومثل هذا الاستعمال شائع فى القرآن وفى كلام العرب وغير العرب ومثله قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)

فالآية التى بعد (وانشق القمر) صريحة فيما نقول . وليس بجائز أن نذهب بالكلام عن سبيله المألوف المعروف . وفهم الكلام يلزم

أن يراعى فيه أول السياق وآخره . ولا يجوز بحال أن يعرض عما قبله وما بعده . ولا يفهم غرض القائل من قوله إلا بما بعده وما قبله غالباً فيجب الاعتماد على ذلك .

رابعها — إن مفسرى القرآن قاطبة فسروا الآية كما ذكرنا إلا ما يؤثر من روايات شاذة ، ولكل شيء شذوذ . وما صح عن أحد ممن يؤتم به فى الدين أنه فسر الآية خلاف ذلك . وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره الاجماع على ذلك . ولم يذكر ابن جرير ولا البغوى ولا غيرهما من المتقدمين الأثريين خلافاً فيه . ولينظر القارىء فى هذه التفاسير . أما مفسرو المتكلمين فيوجد فى تفاسيرهم كل شيء ، ويوجد فيها الاختلاف فى كل شيء ، حتى فى آيات أصول الدين البينة القطعية ، وينقلون فيها أيضاً الروايات التى ليس لها أصول . ولا نجرأ — كما لا نظن هؤلاء المخالفين يجرؤون — على أن نخالف السلف قاطبة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى تفسير القرآن بأشياء وقعت أمامهم ورأوها أو رآها آباؤهم

خامسها — إن قوله (وانشق القمر) معطوف على (اقتربت الساعة) . والأول لفظه ماض ، ومعناه كذلك يقيناً ، كما قال فى السورة الأخرى (اقترب للناس حسابهم) . وقال عليه السلام فى الحديث الصحيح المشهور « بعثت أنا والساعة كهاتين »

إذاً يجب أن يكون المعطوف مثله ماضياً لفظاً ومعنى . ولا نحسب أنه يجوز فى كلام العرب أبداً أن يقال : قام فلان ، وقعد فلان . ويكون

الأول ماضياً لفظاً ومعنى ، والآخر ماضياً لفظاً مضارعاً معنى . فما أعسر أن يوجد ذلك في الكلام . وكذا لو قيل : ذهب فلان إلى الحجاز ، وذهب فلان إلى اليمن لما جاز أن يكون الأول ماضياً دون الثاني . وهذا أمر بين مشهور . فكذلك فعلا الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر) يجب أن يكونا ماضيين معناهما ولفظهما .

ثم قد جاء أن حذيفة بن اليمان الصحابي المشهور كان يقرأ (اقتربت الساعة وقد انشق القمر) وهذا لا يمكن أن يحمل على الاستقبال لأن (قد) تحقق وقوعه ، وتبعده عن الاستقبال . وهذا معنى قول النحويين : (قد) حرف تحقيق .

هذه أمور تدل دلالة يقينية على أن القمر قد انشق معجزة له عليه السلام من جملة معجزاته المادية الكونية الكثيرة . وليعلم المخالفون أن الشكوك والشبهات لا حد لها ولا نهاية تقف عندها ، فمن أعطاها مقوده رمته في لجج من الضلالات عميقة . فلينج المسلم بنفسه منها ، وليستعذ بالله من الارتطام فيها .

هذا وقد أنكر قوم من المتفلسفين الملحدين ، ومن مشى على أعقابهم — تقليداً — انشقاق القمر ، وكذب المسلمون منهم الأخبار الصحيحة ، وصرفوا الآية عن وجهها وحرفوها عن موضعها ، واعتلوا بعدة شبه نذكرها هنا ونذكر جوابها اختصاراً :

القدح فى الروايات

قدحوا فى الأحاديث وقالوا :

أولاً — إنها مختلفة متضاربة فيجب تساقطها . فبعضها يقول : انشق القمر ونحن فى مكة . وبعضها يقول : ونحن فى منى . وبعضها يطلق الانشقاق ولا يقيد مكانه . وبعضها يقول : فرأيناه منشقاً فوق جبل كذا . وبعضها يقول : فصار ذلك الجبل بين شقى القمر

ثانياً — إن بعض الذين رووا الحديث لم يشاهدوا الحادث ، إما لصغر أسنانهم ، أو لأنهم ليسوا موجودين فى مكة وذلك كرواية أنس بن مالك وعبد الله بن عباس . فأحاديثهم من قسم مرسل الصحابى ، والارسال — وإن كان إرسال صحابى — يهون شأن الحديث . لأننا لا ندرى عمن رواه ذلك الصحابى ، ولعله أخذه عن راو ضعيف

ثالثاً — إن انشقاق القمر حادث عجيب نادر تتوثب الدواعى إلى نقله متواتراً قطعياً ، وقد جاء غير متواتر . قالوا : ومن علامات وضع الخبر أن يكون في أمر غريب كبير فلا يكون متواتراً . فلو كان القمر قد انشق حقيقة ، ورآه الناس لجاء عن الصحابة الكبار كالخلفاء وغيرهم متوتراً ، ولاحتجوا به فى مواطن كثيرة لاقامة الدلائل على المخالفين

هذا حاصل الشبهة الأولى .

وجوابها : اما الاول وهو اختلاف الروايات فهو مما لاينقضى منه العجب . فهل هنالك تخالف أو شبه تخالف بين أن يقولوا : انشق

ونحن فى مكة ويقولوا : انشق ونحن فى منى ؟ ! فان قولهم « ونحن فى مكة » يريدون أن ذلك وقع قبل الهجرة الى المدينة ، وقد جاء مصرحاً به فى بعض الروايات ، ولفظه « قبل أن نصير الى المدينة » ولا شك أن من كان فى منى يقول له من هو فى الخارج انه فى مكة . وفى القاموس « ومنى كل قرية فى مكة » . وأما الرواية التى ذكرت الانشقاق مهملة ، ولم تذكر مكاناً فليس فيها مايسمى مخالفة للروايات التى ذكرت أنهم كانوا فى منى أو فى مكة ألبتة . وهل إذا قال قائل : رأيت رسول الله يعمل كذا ، وقال آخر : رأيته يعمل ذلك العمل فى مكان كذا يعد هذا تخالفاً موجباً تساقط الروايتين ؟ ! اللهم لا . واذا قال قائل : رأيت فلاناً يعمل عملا . وقال آخر : رأيته يعمل ذلك العمل فى مكان ذكره يعد تخالفا ؟ ! اللهم لا . فكذا قولهم فى بعض الروايات إنه « انشق فوق الجبل » والقول الآخر إنه « رؤى الجبل بين شقتى القمر » ليس فيه تخالف مطلقاً فلا ريب أن هذه الشبهة من الشبه الدواحض لدى البرهان

ثم ان الاختلاف فى صفة الأمر ليس من الاختلاف الذى يوجب أن يقال : تخالفتا فتساقطتا . فان الاختلاف فى صفات الشىء ليس اختلافاً فى الشىء ضرورة . ولا يوجد أمر نقلى عظيم إلا ويوجد اختلاف في كثير من صفاته وأوصافه . وقد نجد اختلافاً يعد من الكثير فى صلاة رسول الله ﷺ ، وحجه ، وصيامه ، وجهاده ، وولادته ، وصورته ، وحياته . فهل نقول فى ذلك : تخالفتا فتساقطتا ،

فنقول إنه لم تكن له صلاة ولا صيام الى آخره . وكذلك نجد اختلافاً في أحوال الجنة والنار ، والسماء والأرض ، وفي الحساب والعقاب ، وفي الأنبياء ، والملائكة ، والجن . فهل يقال في هذه الأخبار إنها متساقطة كلها ، فينبني عليه أن تكون هذه الأشياء غير موجودة .

وليعلم هؤلاء أن الروايات التي يقال فيها : « تخالفتا فتساقطتا » هي الروايات المختلفة في أصل المعنى . فلو جاء خبر عن رسول الله ﷺ يقول : لم ينشق القمر ، ولن ينشق ، وجاءت رواية أخرى عنه تقول : إنه انشق ، أو سوف ينشق ، لأمكن أن يعد بعض الناس هذا النوع من المتخالف المتساقط

وأما القدح الثاني وهو أن بعض الروايات من مرسلات الصحابة فنقول :

أولا — هذا لا يقدح في الآية كما لا يقدح في الأحاديث المسندة . وقد صح عن ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما مسنداً أنه رأى ذلك بنفسه . وكذلك صح في صحيح مسلم عن ابن عمر ، وجاء عن غيرهما مسنداً في غير البخاري ومسلم من طرق عدة . فهبوا أن الأخبار الأخرى المرسلة ليست صحيحة فالآية والأحاديث المسندة كافية في اثبات المسألة . وأيضا ان الرأي الصحيح أن مرسلات الصحابة رضي الله عنهم حجة ، لأن المعقول المتبادر أنهم يحدثون عن الصحابة الذين شاهدوا ذلك أو سمعوه من رسول الله ﷺ ، وأنهم لا يحدثون إلا عن أهل العدالة المعروفين لهم بالدين والامانة . وهذا لازم إذا كان الخبر

يسند الى رسول الله ﷺ . ثم أليس مما ينضاف إلى المحال أن يقال : إن هؤلاء الصحابة الذين أرسلوا هـذه القصة إنما أخذوها من كعب الاحبار أو نظيره ولا يقال : إنهم أخذوها عن الصحابة الذين كانوا ملازمين لرسول الله ﷺ من كبار المهاجرين والذين كانوا فى مكة يوم وقعت الواقعة ؟ ! وكيف يمكن أن يكونوا قد أخذوها عن كعب الأحبار ؟! وهل كان فى مكة يوم الواقعة ؟ ! والذين كانوا يروون عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب إنما كانوا يروون عنهم الاسرائيليات والروايات عن أنبيائهم السالفين ، لاأحوال رسول الله ﷺ . هذا هو الغالب المعقول . وهل يمكن أن يكون المهاجرون والانصار وفضلاء الصحابة يتعلمون سيرة رسول الله ومعجزاته من مسلمى أهل الكتاب التابعين الذين لم يروا الرسول ؟ ! أوليس من المحال الذى يربأ العاقل بنفسه أن يصدقه أن يقال : إن كعب الاحبار كان يحدث عن أعظم حادث وقع فى حياة رسول الله ﷺ تأييداً لدعوته بين كبار الانصار والمهاجرين ، وهو تحديث كاذب ، وحادث لم يكن ، فلا يكذبوه فى رواية لا صحيحة ولا ضعيفة ؟ ! ولو فرضنا أن كعباً هو الذى حدث أنساً وعبد الله بن عباس عن هذا الحادث العظيم ، ثم لم نجد من رد عليه قوله ولا كذبه لوجب أن نوقن أن الحديث صحيح ، ولا يمكن أن يكون كذباً

ويمكننا أن نقرب ذلك فنقول : لنفرض أن جريدة كبرى من جرائد مصر « كالاهرام » كتبت أن الشمس انشقت شقتين ضحى ،

ووقعت إحدى شقتيها على الارض ، ورآها الناس عياناً ، فهل يمكن أن تقر الاهرام على هذه الأكذوبة فلا يوجد بين الصحف والكتاب من يكذبها ؟! لاشك أنه لابد من تكذيبها إلا أن تكون صادقة . فكذلك لما أن حدث كعب الاحبار وغيره من التابعين عن هذا الحادث الهائل ، ولم نر من كذبه من أولئك العلماء الذين هم أحرص على تكذيب الكذب من غيرهم ، وجب أن تكون تلك الرواية صحيحة بداهة . وهذا من طرائف هذا البحث ، بل هو من أعظم البراهين على وقوعه .

وأما القدح الثالث وهو أنه حادث عظيم فيجب أن يروى متواتراً لو كان صحيحاً ، وفقدان تواتره يدل على اختلاقه . فنقول عليه : هذا يقضي بتكذيب جميع الخوارق التي وقعت لرسول الله ﷺ ولغيره من الصحابة والأتباع ، لأنه لم يرو منها شيء متواتراً ، مع أنها أشياء تتحفز الدواعي على روايتها .

فصح أن رسول الله كان يخطب على جذع نخلة فلما اتخذ منبره وترك الجذع طفق الجذع يحن حنيناً كالطفل حتى نزل رسول الله وضمه اليه وسكته . وصح أن الماء نبع من بين أصابعه . وصح أنه دعا شجرة فجاءته ثم أمرها بالرجوع فرجعت لما طلب منه بعض المشركين دليلا على نبوته . وصح أنه كان يزيد الطعام والشراب على يديه حتى إنهم كانوا يأكلون منه فيزيد . وصح عنه أن بعض ذوى العاهات كالعميان يجيئونه فيدعو الله لهم فيبرؤون . وصح أنه صعد على جبل

أحد ومعه بعض الصحابة فاهتز الجبل فقال «اثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيدان». وهذه أخبار كلها صحيحة عند أهل العلم لا خلاف بينهم فى صحتها.

وجاء أن عمر بن الخطاب نادى — وهو يخطب المسلمين فوق منبر المدينة — قائد جيوشه وهو فى بلاد فارس قال: ياسارية: الجبل — ياسارية: الجبل — فسمعه القائد فانحاز بالجيش إلى الجبل. وجاء أن خالد ابن الوليد شرب السم وسلم منه، وأن بعضهم نزل عليه دلو من السماء، وبعضهم كانت تضيء له عصاه إذا قام من عند رسول الله فى الظلام ونظائر هذا عديدة. وليس منها شيء متواتراً التواتر الذى يعنون فهل تكون كلها كذبا؟ هذا القدح يقتضى تكذيبها، وهذا لا يقوله من يعرف ما يقول

وأيضاً التواتر إما أن يراد به شهرة المتواتر وذيوعه وكثرة من رووه وعرفوه، وإما ان يراد به روايته بالأسانيد الصحيحة على شريطة المحدثين متواتراً بنفس الأسانيد الصحيحة. إن أريد الأول فلماذا لايكون حديث الانشقاق متواتراً؟ فقد اشتهر أى اشتهار، وروى فيما لا يعد من الكتب القديمة والحديثة، وعرفه الخاصة والعامة، وما برح المسلمون يستدلون به على المخالفين، ويضعونه فى حساب المعجزات الاسلامية. وكم من الأمور ما يؤمن هؤلاء بأنها متواترة مع أنها لم تشتهر اشتهار انشقاق القمر. وإن أريد الثانى لم يكن صحيحاً، فان المتواتر لايشترط فيه أن يكون تواتره بالأسانيد الصحيحة، بل يكون

التواتر برواية الكفار والفساق. وأكبر الامور التاريخية والدينية ليست متواترة على هذا التعريف.

وأيضا فان الانشقاق جاء فى القرآن، والقرآن متواتر، وليس بلازم أن يكون التواتر بروايات الحديث، وإنما المراد التواتر فقط، سواء أكان بالحديث أم بما هو أثبت منه وهو القرآن. وأما التنصل من ذلك بتأويل الآية فليس بدافع وجود التواتر لأن المتواترات جميعاً يمكن تسليط التأويل عليها. وقد أول أقوام من الملحدين مافى القرآن من شئون البعث، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، وعذاب القبر، وعالم الأرواح، مع أنها كلها متواترة. على أن التأويل يدرك الروايات كما يدرك الآية فلو جاء الانشقاق فى الحديث متواتراً كما اقترح هؤلاء لأولوه كما فعلوا فى الآية

مخالفة ذلك القرآن

وقالوا: إن انشقاق القمر يخالف القرآن والحديث. فان المشركين كانوا يطالبون الرسول بالآيات الكونية فلا يجيبهم الله الى ماطلبوا واقترحوا. وهذا بين فى القرآن، قال فى سورة يونس (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) ومثلها فى سورة الرعد. وفى سورة طه (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى) وفى سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين

أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وفى سورة الانعام (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) وفى سورة الاسراء (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) . وفى البخارى ومسلم أنه قال عليه السلام « ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »

قالوا : فهذه النصوص تدل على أن الله لم ينزل على المشركين ما طلبوه من الآيات المادية فكيف نتركها لهذه الروايات ؟!

ونحن نقول : ليس فى شىء من الآيات المذكورة ولا الحديث أن الله تعالى لم ينزل على رسوله ولا آية واحدة ، ولا أنه لا يمكن أن ينزل . والذى تدل عليه الآيات والاستقراء أن المشركين لم يعطوا من ذلك كل ما سألوه ، وقد ذكر القرآن مطالب المشركين وعنادهم وتعسفهم فيه ، ففى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) وفى سورة الفرقان (وقالوا مال هذا الرسول يأكل

الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها)

فالله لم يعطهم أمثال هذه المطالب ، والآيات المذكورة دالة عليه ، وليس فيها البتة الدلالة على أن الله لم ينزل عليه آية كونية مطلقاً . وقد حكى القرآن عن الرسل مع أقوامهم مثل هذا مع أنه قد نزل عليهم آيات كونية . ففي سورة ابراهيم حاكياً عن المشركين (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . والسلطان هنا هو الآية . وفي سورة هود (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إلى آخر الآيات . فهل دلت هذه على أن الله لم ينزل على هؤلاء آيات ؟! .

ويقال أيضاً إن في الآيات المذكورة ما يدل على عكس ما ظن المنازعون فان قوله (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وقوله (قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقوله (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) تشير إلى نزول الآيات إشارة تكاد تكون صريحة . فقوله (انتظروا) بعد طلبهم ذلك كالتصريح بأن الانتظار للآيات وقوله (قل إن الله قادر على أن ينزل آية) كالتصريح أيضاً بأن ذلك سوف يكون ، وقوله (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا)

كالتصريح بذلك أيضاً لأن (نرسل) فعل مضارع ولابد من تحققه في المستقبل فان لم يكن ذلك على خاتم الأنبياء فعلى من يتحقق . وأيضاً إذا كان إرسال الآيات تخويفاً من الله لعباده فهل يترك قريشاً بلا تخويف وهل يبخل عليهم بذلك ؟ فالآيات تنتج خلاف ما استنتج المخالفون . وقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) لا يدل على أن الله امتنع من أن يرسل آيات مطلقاً ، وإنما معنى ذلك أن الكفار كانوا يطالبون النبي عليه الصلاة والسلام بمثل الآيات التي جاء بها الأنبياء قبله ، كعصا موسى ويده ، وناقة صالح ، وكاحياء عيسى للموتى ، ويقولون إذا جئتنا بذلك آمنا لك وصدقناك فأبى الله عليهم ذلك وقال مامنعنا أن نرسل إليهم الآيات التي طلبوا إلا أنها لن تجدي فيهم وان يؤمنوا بها كما لم يؤمن بها من قبلهم من الأمم وهم مثلهم عناداً وضلالا . فالذي أخبر القرآن أن الله امتنع من أن يرسله هو ما كان مثل آيات الأنبياء التي تكون هي الآية الكبرى لأنبيائه لامطلق الآيات . ودليلنا على ذلك أن الله قد أرسل آيات كثيرة إلى قريش على نبيه عليه الصلاة والسلام بالاجماع ، وليس بممكن أن يأتي رسول بلا آيات تدل على صدق دعواه

وأيضاً إن الآية تقول (وما منعنا أن نرسل بالآيات) فلو فرضنا أنها دليل على أن الله لم يرسل آيات لم تدل على أن الله لم يرسل آية واحدة كانشقاق القمر

وأيضاً مما لا يصار اليه أن يقال : إن الآيات السالفة تدل على أن

الله لم يرسل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم آية ، فان القرآن آية الآيات وقد تواترت الروايات الصحيحة أن الله تعالى قد أعطى رسوله من الآيات المادية الشيء الكثير غير القرآن حتى قدرها بعض العلماء كما فى فتح البارى بألف ومائتين وقدرها آخر بثلاثة آلاف . وقد عقد الإمام البخارى فى صحيحه باباً سماه علامات النبوة ذكر فيه طرفاً من معجزاته المادية ذكر فيه بضعاً وخمسين حديثاً ، وروى فى هذا الباب عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : « كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا . كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال : اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده فى الأناء ثم قال : حى على الطهور المبارك والبركة من الله . ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » . وقد ذكرت هذا الحديث دون غيره لأنه سمى ذلك آيات . وقد ألف أئمة كتباً خاصة سموها علامات النبوة ذكروا فيها أموراً كثيرة من الدلائل المادية على رسالته . ومن أنكر جميع ذلك غير القرآن فهو فى حاجة إلى أن يقال له تعلم

فهل هذه الآيات تدل على كذب هذه الأخبار كلها ؟ ! هذا خلاف الإجماع وخلاف الضرورة ، فإننا لا نشك أن ذلك لا يمكن أن يكون كذبا كله — وإن كان يجوز على كل فرد ذلك — وإذا لم تدل الآيات على كذب ذلك لم تدل على نفى انشقاق القمر لأنه واحد منهما

ويمكن تصوير هذا بعبارة أخرى فنقول : الآيات التى ذكروها

إما أن تكون دليلا على نفى الآيات المادية مطلقاً أو تكون دليلا على نفى نوع خاص منها . الأول لا يمكن أن يصار إليه لأنه عليه السلام قد أوتى آيات مادية كثيرة بالإجماع والتواتر ، فنبع الماء من بين أصابعه وسبح له الحصى والطعام حتى سمعوه ، وحن الجذع الذى كان يخطب عليه لما أن تركه ، وزاد الطعام والشراب على يديه . وذلك كثير . وإن أريد الثانى فمن أين علم المخالفون أن انشقاق القمر من القسم الذى منع إنزاله ؟! هم يحتاجون إلى دليل

وأيضاً هذه الآيات ليست أبين فى النفى من آية الانشقاق وأحاديثه على الاثبات . فإن آية الانشقاق وأحاديثه نص فى معناه . وأما الآيات التى زعموها نافية فلا يقدر المخالف أن يدعى أنها نص فى نفى انشقاق القمر . وحينئذ ليس من العدالة أن يترك البيّن الواضح للخفى المتكلف ، ومن فعل ذلك فقد فاته الانصاف والاتزان الفكرى

والحديث وهو قوله « مامن نبى إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً » معناه أن سائر الأنبياء كان أكبر معجزاتهم التى يعتمدون عليها فى التحدى والإعجاز مادياً ، وإن كانت لهم معجزات أخرى علمية — وهذا أمر لا ريب فيه — وأن أكبر معجزات محمد عليه السلام التى يعتمد عليها فى التحدى والإعجاز علمية وهى القرآن ، وإن كانت له معجزات أخرى مادية ومعنوية أيضاً هذا معنى الحديث الذى لا يصح العدول عنه .

قالوا : إن سنة الله التى لا تبديل لها أن يهلك المكذبين بلا إمهال بعد أن يرسل الآيات المادية . فاذا ما أنزل على أمة من الأمم آية مادية من الآيات معجزة لرسول من الرسل فلم يؤمنوا وأصروا على على كفرانهم وضلالهم أهلكهم بلا إمهال ، كما أهلك قوم نوح وصالح وموسى وشعيب ولوط وغيرهم . فلو كان القمر انشق حقيقة معجزة له ﷺ لوجب أن يهلك قريشاً لأنهم لم يؤمنوا بعد ذلك بل كذبوا وأعرضوا كما قال فى السورة (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم) إلى آخر الآيات ، وهم لم يهلكوا ، فلا جرم أن تكون مسألة الانشقاق أسطورة من الأساطير

هذا تحبير هذه الشبهة ، وهى غلط لا حيلة فيه وإن حسبها أصحابها معجزة قاهرة . وبيان ذلك أن الله لم يهلك المكذبين الكافرين بمجرد أن كذبوا بعد الآيات سواء أكانت باقتراح أم بغير اقتراح ، وإنما أهلك تلك الأمم بعد أن أسرفوا فى الفساد وتمادوا فى الكفر حتى قنط أنبياؤهم من إيمانهم . فنوح عليه السلام لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهم له مكذبون كافرون ، بعد أن أرسل الله لهم الآيات بأعوام ، ولم يهلكهم فى هذه المدة المديدة ، بل لم يهلكهم إلا بعد أن أيس نوح من إيمانهم وإيمان ذرياتهم ، فدعا الله عليهم فأهلكهم كما هو مذكور فى القرآن . وكذلك فرعون وقومه لم يغرقوا بمجرد أن

كذبوا موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالآيات التي اقترحوها ، وإنما أغرقوا بعد أن هرب موسى بقومه ، فأتبعوهم لأخذهم وإبادتهم ، فأخذهم الله ذلك الأخذ العنيف ، ونجى رسوله وقومه . وما كان إغراقهم بمجرد التكذيب ، وإلا لما تركوا إلى ذلك اليوم . ومثل هؤلاء قوم صالح ، لم يهلكوا بعد أن جاءهم صالح بالآية الكبرى — وهي ناقة الله — وكذبوا ، بل أهلكوا بعد أن عقروها . وما كان مطلق التكذيب موجباً ذلك . ومثل هؤلاء قوم لوط ، لم يأخذهم الله ذلك الأخذ بالتكذيب فقط ، بل بأن أرادوا أن يعملوا تلك الفاحشة الشنعاء بأضياف لوط ، وهم ملائكة الله . وهكذا شأن من أخذه الله . فليس من سنة الله أن يهلك الأقوام لمجرد تكذيب الآيات مقترحة وغير مقترحة . فاذا انشق القمر لرسول الله ﷺ ولم يؤمن قومه لم يوجب ذلك أن يهلكوا فوراً . وليس ذلك من سنة الله كما أريناك . فهذه الشبهة غلط يجب أن نطن له الذين تعلقوا بها وحسبوها شيئاً وما هي إلا خيال زائل .

وهل يمكن أن يقال : إن من حكمة الله وسنته أن يهلك قريشاً لما كفروا بعد أن انشق القمر والله يعلم أنهم سوف يؤمنون قبل موت رسوله ، وسوف يفتح بهم البلاد والقلوب ، وسوف يكونون من حزبه وحزب رسوله المفلحين ، وسوف يخلق الله من ذريتهم أولئك العلماء والأبطال والعباد الذين سطر الدهر تاريخهم من نور وفضائل ؟ ! كلا فليس إهلاك هؤلاء من سنة الله ولا حكمته وإنما سنته أن يهلك أمثال قوم نوح الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهم

لا يزدادون إلا عناداً وكفراً ، ولا يلدون إلا فاجراً كفاراً . هذه سنة الله وحكمته .

ثم قول القائل : من سنة الله ألا يفعل إلا كذا ، ولا يمكن أن يترك كذا ، ويجب أن يهلك كذا كلام ملآن بالجرأة ، وقول لاحد له ولا ضابط به يعرف . فمن أين علم هؤلاء ان الله لا بد ان يهلك كل من كذب بعد ان تظهر الآيات ؟ ! لا بد لهذا من أمر يعرف به . ولو فرضنا أن الله اهلك الامم الخالية بمجرد التكذيب بعد ان أتت الآيات ، لم نعلم من ذلك ان الله لا بد أن يهلك كل من كذب . أو ليس هؤلاء يزعمون أن آيات جميع الانبياء الاولين كانت مادية ؟ ! فهل يقولون إن سنة الله التي لا تبديل لها ان تكون كل آيات الانبياء كذلك ؟ ! يكذبه ان معجزة محمد عليه الصلاة والسلام علمية وهي القرآن . أوليسوا يدعون أن الله قد أباد الأمم لما كذبت انبياءها ، بعد ما جاءتهم الآيات ؟ ! فهل كانت سنة الله ابادة المكذبين بعد الآيات ؟ ! فقد كذبت قريش رسولهم بعد ان جاءهم بآية الآيات وهي القرآن ، فلماذا لم يبدهم ؟ ! أما التفريق بين الآيات المادية والعلمية فلا دخل له في ذلك ، لانه اذا استحق المكذب بالآيات المادية الاهلاك ، كان المكذب بالآيات العلمية احق به ، لأن الآيات العلمية كالقرآن ادل على صدق صاحبها من الآيات المادية لأن الاخيرة قد تتحمل التأويل والتشكيك وهذا المعنى يسلم به المخالف . وما كان استحقاق الماضين الاهلاك لأن آياتهم كانت من نوع كذا ، وانما كانوا جديرين بذلك لأنهم كذبوا

رسلهم ، مع انه ظهر ما يدل على صدقهم ، ولأنهم تمادوا فى الكفر والمنكرات . فليراع المنازعون هذا الكلام جيداً

مخالفة ذلك لعلم الفلك

قال فريق من المتفلسفين الملحدين ومن تلدهم : ان الاجرام العلوية لايطرأ عليها خرق ولا انشقاق ، ولو وقع لها شيء من ذلك لفسد نظام الجاذبية فتناثر العالم ، فلا يمكن أن يكون القمر انشق لذلك

ونحن نقول : هذه شبهة من يجحد الخالق القادر المختار ، ومن يجحد جميع الخوارق من المعجزات والكرامات ، ومن ينكر قيام الساعة وخراب العالم . لأن ذلك كله خلاف ناموس الطبيعة — كما يدعى — وهذا القسم من الناس قليل لايؤبه له ، وهو صائر الى الانقراض والزوال ، وليس له إلا أن يقال له تعلم . فان علوم الفلك والطبيعة العصرية الاوربية تنادى بغلط هذه الشبهة ، فهى لاترى مانعاً من خرق الافلاك بل وفسادها بل يقرر أولو هذه العلوم ماهو اثبت من ذلك فى الغرابة فهم يقولون إن الأرض كان قطعة نارية انفصلت من الشمس . وقد يستدل المسلمون منهم على ذلك بقوله تعالى (او لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما) . ويفسرون الآية بأنهما كانتا شيئاً واحداً ، وهذا معنى قوله (رتقاً) ثم انشقت الارض من الشمس ، وهذا معنى قوله (ففتقناهما) ويقولون : ان القمر كان جزءاً من الارض انفصل منها . وقد يستدل المسلمون منهم على ذلك بقوله تعالى (أو لم

يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها) اى بانفصال القمر منها ـ كما يقولون ـ فاذا كان حصل مثل هذا ، ولم يحصل فساد للجاذبية ، ولا تناثر للعالم ، فلن يحصل ذلك بانشقاق القمر . وهذا بين . فالشبهة باطلة فى الاديان كلها ، وفى علوم الفلسفة العصرية

خفاء ذلك على أهل اروقطار

قالوا : ان انشقاق القمر من أعظم الأحداث الكونية التى تتحفز الدواعى الى نقلها وتدوينها وروايتها ، فلو كان ذلك وقع فعلا لذكره أهل الفلك والتنجيم ، ولاشتهر في سائر الاقطار أيما اشتهار ، وهم لم يذكروه ، فخفاؤه عليهم يدل على انه لم يقع

والجواب ان يقال : ان القمر لا يطلع على أهل الارض كلهم فى زمان واحد ، بل يطلع على فريق منهم ويخفى عن آخرين ، فلا يمكن ان تراه أهل الارض فى زمن واحد جميعا ، فاذا انشق لم يلزم أن يراه كل احد ، فلا يلزم ما ذكروه إذاً .

وأيضاً ان ذلك قد وقع ليلا ، حينما نام اكثر الناس واستكنوا فى بيوتهم ، وقل الخارجون الناظرون الى السماء . وقع فى هذه الحالة لحظة قليلة ، فى مثلها يقل الناظر الفاطن له .

وأيضا يجوز أن يكونوا رأوه ، وفطن له خلق كثير منهم ، ولكن خونوا عيونهم وخالوه خيالا ، لاستبعادهم ان يحصل مثله حقيقة ، فهم يكادون يرونه من المحالات ، فلم يذكره المؤلفون منهم لذلك سواء

منهم الذين رأوه والذين حدثوا به لانهم - كما قلنا - يعزون مثل هذا الى غلط النظر ، والنظر يغلط احيانا ، وهذا شيء يقع كثيرا

ألا ترون لو ذهب جماعة الى احد كتاب اليوم ، المؤرخين أو ارباب الصحف ، وشهدوا عنده انهم رأوا حجرا أو شجرا يمشي ، أو يصعد في السماء ، أو يخاطبهم ويفهمون له وأمثال ذلك من الخوارق المستحيلة عادة فهل يمكن أن يصدقهم هذا الكاتب ويقتنع بما قالوه فيدونه في كتابه وصحيفته أم لا يشك في انهم كذبوا أو وهموا ؟ فكذلك لنفرض أن أهل الأرض رأوا القمر منشقاً ، ولكن نقول إنهم لايجرؤون على تدوين ذلك ، وجعله من الحقائق التاريخية ، لأنهم يرون وقوعه محالا ، فلا بد أن يكذبوا مخبريهم ، ويكذبوا أعينهم ، ولا بد أن يهملوا تدوينه لئلا ينسبوا الى التغفيل والتصديق بالخرافة

ولنضرب لهذا مثلا آخر : لنفرض ان القمر انشق في ايامنا هذه ، بعد أن نام أكثر الناس وآوتهم منازلهم ، فرآه من رآه من عامة الناس ودهمائهم ، فأصبحوا يحدثون الناس بهذا الحادث ، فهل يمكن أن يصدقهم هؤلاء المتفلسفون ؟ وهل يمكن ان يقبله زعماء الاقلام ؟ وهل اذا الف منهم مؤلف كتاباً في الجغرافيا ، أو الفلك ، أو التاريخ يذكر ذلك في كتابه مؤمناً به ، ويجعله من الاحداث التاريخية ؟ لا جرم انه سوف يضرب عن ذلك صفحاً لئلا يكون من الجاهلين المغفلين في نظر القارئين ، في الحاضر والآتي . واذا لم تقيد الكتب امثال هذا الحادث

ضاع من الناس ونسوه . فكذلك يقال فى إهمال التواريخ القديمة لانشقاق القمر . وهذا واضح

وأيضاً ليعلم المنازعون الفضلاء ان الناس فى ذلك الزمان ما كانوا من العناية والاشتغال بتقييد الأحداث كما يحسبون ، وكما نشاهد اليوم . فالجهل فى ذلك العصر عام جميع الطبقات ، لافرق بين الزعماء وغيرهم ، وما كان التأليف نافقاً قائماً كحاله الآن ، بحيث لايفوته حادث . وهل يقدر هؤلاء ان يرونا كتباً الفت فى هذا الفن فى العام الذى وقع فيه هذا الحادث ، أو القرن الذى وقع فيه ، قد اعرضت عن ذكره ، مع انها لائق بها ان تذكره . فمن نبأ هؤلاء ان الأمم لم تره ، وان المؤلفين لم يذكروه فى مؤلفاتهم التى الفت فى ذلك العصر ؟ لا شك ان هذا النفى لا بد له من دليل . وإلا لكان مرجوعاً على قائله وليس مع المخالف على ذلك من دليل . وقد جاءت الاخبار ان قريشا لما رأوه قالوا سحرنا محمد ، فسألوا السفار الواردين من الأقطار ، فأخبروهم انهم رأوا ذلك . وحكى بعض العلماء الثقات انه رأى فى كتاب قد ألف قديماً أن أهل الصين رأوا القمر انشق ، وانه حدثه بعض المسافرين انه رأى بناء فى الهند مكتوبا عليه انه بنى يوم انشق القمر . وهذه الأمور يستطيع المخالف أن يمارى فيها وأن يؤولها ، ولكن ليعلم ان التأويل لايترك شيئا . ولعل الايام تبدى لنا اكثر من ذلك . ومن الظلم للحقائق والدين ان ترد الاخبار الصحيحة بأمثال هذه الشكوك والاوهام .

برهان ضروري على وقوع هذه المعجزة

لاشك أن انشقاق القمر قدشاع فى زمن التابعين ، واشتهر ايما اشتهار ، وحدث به الأئمة منهم الذين قولهم هو القول وحديثهم هو الحديث ، وان الناس تلقوه عنهم بالتسليم والتصديق ، وحدثوا به هم أيضا من لايقدرون من الرواة . ولا ريب انه لم تأت رواية — لاصحيحة ولا ضعيفة — ان أحدا فى ذلك العصر الزاخر بالصحابة والتابعين والعلماء والحكماء كذب ذلك ، وقدح فى روايته وراويه . هذان أمران أو مقدمتان لاشك فيهما عند من له المام بالرواية . فاذا انضم اليهما مايعلم بالضرورة والتواتر عن أهل ذلك العصر ، من العناية بالعلم ونقده وتمييز صادقه من كاذبه ، وعليله من صحيحه ، بلا هوادة ولا مصانعة ، وانضم اليهما أيضا ان هذه المعجزة حادث عظيم ، وآية كبرى ، لايمكن أن تكون مجهولة خفية على علماء ذلك العصر ، لأنها من الأحداث الكونية الظاهرة ، ومن المعجزات التى تحدى بها رسول الاسلام قومه وعزز بها دعوته ، وجعلها من جملة براهينه على صدق رسالته : اذا علمنا هذه المقدمات الاربع علمنا يقيناً ان هذه المعجزة وقعت حقاً ، وعلمنا يقيناً انه لايمكن أن تكون كذبا ، وانها لو كانت كذلك لتوارد عن علماء ذلك العصر من الصحابة والتابعين انكذابها ، والرد على ناقلها ، ولما أمكن أن تشيع هذه الاكذوبة العظيمة فى ذلك العهد ، فلا يوجد

من يكشفها ، مع معرفة القوم واحاطتهم بأحوال رسولهم وآثاره وآياته الصغيرة والكبيرة ، واحاطتهم بذلك كله بالدقة النادرة

فمن زعم ان ذلك خفى على علماء ذلك العصر — الذى هو أغنى عصور الاسلام بالعلم والعلماء — فقد ازرى بالمسلمين اى ازراء

أرأيتم لو كتب كاتب اليوم بأن الشمس قد انشقت معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ان القمر انشق بعد هجرته الى المدينة ، فهل يمكن أن تمضي هذه الاكذوبة من غير أن يكذبها العلماء والكتاب ؟ ! انه لابد أن يكذبوها . وأرأيتم لو كتب كاتب بأن رسول الله هاجر الى الحبشة ، أو انه رأى مصر أو الهند أو العراق ، فهل يمكن أن تمضى هذه الأكذوبة من غير أن يكذبها العلماء والكتاب ؟ ! أو لو ان كاتبا كتب ان للشمس أو القمر قد انشق منذ عشرين عاما ، ورآه الناس ، فهل يمكن أن تمضى هذه الاكذوبة دون أن تكذب ؟ ! أو لو ان كاتبا كتب ان الشيخ محمد عبده ، العالم المشهور ، ذهب الى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، انه لابد ان يكذب ذلك تلاميذه الذين يعرفون حاله ، ولا يجوز ان تمضى هذه الاكذوبة فى الناس ولا يكذبها اخصاء هذا العالم . فكذلك لا يمكن أن يكون انشقاق القمر — وهو من أعظم الاحداث وأغربها — كذبا ويحدث به فى زمن التابعين ومن بعدهم — وهم كما وصفنا صلاحا وحرصا على العلم ومعرفة بأحوال الاسلام — فلا يوجد من يكذبها . وهل هذه من الامور الهينة التى قد تخفي أو قد يختص بعلمها فريق دون فريق ؟ ولو أن كاتبا كتب أن رسول الله ﷺ

كان قد أعطي ناقة كناقة صالح ، أو عصا كعصا موسى ، أو يدا كيده ، أو أنه عاش فى قومه كما عاش نوح ، أو غير ذلك من الامور التى لا يخفى صدقها ، كما لا يخفى كذبها ، لما عدم ذلك الكاتب من يكذبه ، ويرد عليه قوله . وكذا لو حدث محدثون عن مشاهير العلماء والفلاسفة بأمور كبيرة ، يعرف صدقها وكذبها عادة ، فلا بد أن يوجد من يكذب الكذب فى ذلك من العارفين بسيرة ذلك الذى حدثوا عنه

فمن ذلك نعرف بالضرورة التى لا تكذب انه لو كان انشقاق القمر اسطورة — كما يقول هؤلاء — لما شاع فى عصر التابعين والذين يلونهم كل هذا الشيوع ، دون أن يوجد من يكشفه ويرجعه إلى الباطل الذى هو منه . فهذا برهان قاهر على حصول هذه المعجزة على يد أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام

ولنا أن نقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول : لاشك أن أغلب المسلمين كان يدعى أن هذه المعجزة قد وجدت - إن لم نقل كل المسلمين . وان الأحاديث الصحيحة قد تكاثرت فى أصح كتب الاسلام بعد القرآن ، بل فى جميع كتب الاسلام ، واشتهر ذلك اشتهارا طبق الآفاق وذكره جميع الذين ألفوا فى علامات النبوة ، وجعلوه من آياته عليه السلام الكبرى ، وتمدحوا به ، وفاخروا به الأمم ، وحاجوهم به أيضا . ومع ذلك كله لم يوجد بين اليهود ، ولا النصارى ، ولا غيرهم من أمم الكفر فى ذلك العصر من نازع فى وجود هذه المعجزة ، ولا من ناكر فيها ، أو قال كما قال هؤلاء المسلمون : لو أن القمر انشق حقيقة

لعلمه الناس كافة ، ولما خفى علينا وعلى غيرنا ، بل وجب أن نعرفه كما عرفتموه معشر المسلمين ، ووجب أن يطلع عليه أهل الأقطار جميعا ، كما اطلع عليه أهل مكة . وبالجملة لماروا فيه كما مارى فيه هؤلاء الفضلاء ولكن هذا أمر لم يكن منه شيء .

ومن هذين الأمرين يبدو لنا ، ولهؤلاء الفضلاء انه لامطعن لطاعن فى وجود هذه المعجزة ، وانه لاتمكن المجاحدة فيها ، والا لكان أولئك الكفار الخصوم هم أولى من هؤلاء المسلمين بهذا الاعتراض ، وأسبق اليه منهم .

أفلا يكون هذا دليلا على ضعف اعتراض هؤلاء على هذه المعجزة كما كان إعراض العرب عن معارضة القرآن الكريم — وهم الخصوم الألداء — دليلا على ضعف معارضة من بعدهم ؟! انه لكذلك

هل تحسبون انه يوجد لخصوم الاسلام شبهات عليه صحيحة — كما زعمتم — فلا يدلون بها ولا يعارضون ؟! وهل يمكن أن تكون اعتراضاتكم هذه صحيحة فيعرض عنها الأعداء ؟! اللهم لا

ولقد آسفنا وآسف كل مسلم أن يقول بعض من كتب فى هذا من المتأخرين المعاصرين ، المعروفين بالدين والتحقيق والدفاع عن الاسلام والسنة والفضيلة : ان رواية أحاديث انشقاق القمر تعد هنة من هنات علماء الاسلام وسقطاتهم التى توجب القدح فيهم وفى عقولهم ، بل أسرف وقال : قد يكون ذلك قدحا فى الاسلام نفسه وعيبا فيه . ونحن

لا نقول عند هذا الا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) اللهم انا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا ، ونعوذ بك اللهم من الهوى ، فانه لا يفلح يارينا من ابتليته بهواه .

حديث السحر

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله » رواه البخارى ومسلم وغيرهما. وللحديث روايات وبقية

وهذا الحديث صحيح الاسناد . وقد اعتاص على جماعة فكذبوه لامن جهة سنده ، بل من جهة العقل — كما يقولون . ولهم على ذلك ثلاث شبه :

أولها — قالوا : هذا الحديث يصدق المشركين فى قولهم (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)

ثانيها — قالوا هذا يزيل الثقة بما جاء به رسول الله ﷺ . فانه اذا سحر وخيل اليه أنه يفعل الأمر — وهو لم يفعله — أمكن أن يخيل اليه انه أوحى اليه ، وهو لم يوح اليه ، وانه بلغ ماأوحى اليه ، وهو لم يبلغه. وبالجملة أمكن أن يقع بالتخييل في كل أمور الدين ، وأن يصدر عن

خيال فى كثير مما يأتى وما يذر ، فلا يكون فى فعله ولا قوله حجة ولا اطمئنان لذلك

ثالثها — قالوا : السحر من عمل الشياطين ، وصنيع النفوس الشريرة الخبيثة . وهؤلاء لا يتسلطون الا على من غفل عن الله ، ولم يستعصم بأسمائه وصفاته ، ومن قصر فى الطاعات وأعمال البر . اما من تحصن بعبادة الله ، ولهج بذكراه ، وعاذ بحماه ، كالأنبياء ، فليس للشيطان ولا للشريرين عليهم من سلطان . قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)

هذه هى شبهاتهم التى اعتلوا بها فى توهين هذا الخبر الصحيح والشبه الثلاث ضعيفة جداً اذا ماتؤملت

أما الأولى وهى تصديق الكفار فنقول :

(أولا) كان الكفار يقولون : إن محمداً بشر ، وإنه فقير ويتيم ، وإن أغلب من يتبعه الضعفاء الفقراء . فهل نكذبهم فى ذلك ؟ ! ويقولون : (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) فهل نكذبهم ؟ ! ويقولون إنه لا يعلم الغيب ولا يقدر على اهلاكنا ولا على اتياننا بالآيات فهل نكذبهم فى ذلك . ويقولون نحن أكثر مالا وولداً من أتباعه ، ويقولون إن محمداً أنكر آلهتنا ، وسفه أحلامنا ، وصدنا عما كان يعبد آباؤنا وجعل الآلهة إلهاً واحداً فهل نكذبهم فى ذلك كله ؟ ! وقد أخبرنا الله عن الأمم الماضية أنها قالت لرسلها (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) فهل

هم كاذبون فى ذلك ؟ ! بل قد صدقتهم رسلهم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) وكان الكفار يقولون : إن الله خالق كل شىء وبيده كل شىء ، وإن أصنامنا لا تخلق ولا تنفع ولا تضر . فهل هم كاذبون في ذلك ؟ ! وبالاجمال كانوا يقولون أقوالا كثيرة صادقة لا يجوز أن نكذبهم فيها لئلا نكون مصدقين للكفار . ما قال هذا أحد ، بل الصدق يجب أن يصدق ، سواء أكان من كافر أم من مؤمن . والكذب يجب أن يكذب ، سواء أكان من كافر أم من مؤمن . وإنما معنى ذلك أن الظالمين كانوا ينسبون إلى الرسل كل ما يظنونه قادحاً فى رسالتهم وصدقهم ، وإن كان واقعا حقاً لا يقدح فيهم كما ظن هؤلاء أن السحر يقدح فى الرسالة ، فكذبوا الأخبار فيه . والظنان خطأ . إذاً ليس كل ماقاله الكفار كذباً . وإذاً ليس تكذيبهم فى كل شىء قالوه لازماً ، بل لا يكذبون إلا فيما قام البرهان على أنه كذب ، ولا يخالفون إلا فيما قام الدليل على أن مخالفته رشد ، وهذا أمر لا يحوم حوله خلف ، فلا يلزم إكذاب الظالمين فى مقالتهم هذه حتى تقوم الحجة من العقل أو النقل على أنهم كاذبون . وما علمنا أحدا قبل هؤلاء يستدل على خطأ القول بأن قالته طائفة من الناس ، ولا علمنا من قال إن الكفار لا يصدقون فى شىء ما . ومما يبين هذا أن قبل هذه الآية (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) ثم قال تعالى بعد ذلك (وقال الظالمون إن تتبعون

إلا رجلا مسحورا) فهل هم كاذبون فى ذلك كله ؟ ! اللهم لا .

(ثانيا) اننا نعلم يقينا ان الكفار لا يريدون بقولهم هذا ان يثبتو لرسول الله ﷺ ما أثبته هذا الحديث . وهو أن فلانا من اليهود سحره بضعة أيام ، فأدركه شيء من التغير ، وخيل اليه أنه يفعل بعض الشيء وهو لا يفعله . ثم ان الله شفاه من ذلك . انهم لا يريدون ذلك بلا شك . والمخالفون لنا يعلمون ذلك أيضا . وانما يريد الكافرون بقولهم هذا أن رسول الله عليه السلام انما يصدر عن خيال وجنون في كل ما يقول ويفعل ، وفيما يأتى وما يذر ، وأنه ليس رسولا ، وأنه لم يوح اليه شيء ، وان القرآن ليس من عند الله ، وانما هو خيال مسحور ، وانفعال مجنون ، وبناء عليه ليس علينا تصديقه ولا اتباعه .

فاذا آمنا بما دل عليه الحديث وقلنا : ان الرسول سحر بضعة أيام ، لم نكن مصدقين للمشركين ، ولا موافقيهم فيما ارادوا وعنوا ، لأن الذى عناه الحديث ، ومن صحح الحديث ، غير الذى عناه هؤلاء الظالمون . وإذا تغاير القصدان لم يكن هناك تصديق ولا موافقة . وهل يقدر المخالفون أن يقولوا : إن مراد هؤلاء الذين قالوا (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) أن رسول الله ﷺ سحر وقتا ما ، وناله بعض التغير ، ثم أدركه الله بالشفاء ، وحفظ وحيه ودينه من أن يصل اليه شيء من ذلك التغيير والتخييل ؟ ام انهم يريدون ان هذا القرآن الذى جاء به ، والدين الذى شرعه ، ليس هو كلام الله ، ولا من عند الله ، وانما هو صادر عن هذيان ، وتغير بال ؟ هذا هو ما يعنون ، وهم كاذبون فيه ، والحديث

لا يصدقهم ، ولا من صدق الحديث . والامر واضح بين

وأما الشبهة الثانية ، وهى جواز الاختلاط عليه فى الوحي فنقول :

أولا — نحن ما علمنا عصمته من ذلك ، لعلمنا انه لم يسحر ، ولا يجوز عليه السحر . بل علمنا انه معصوم فى تبليغه ببراهين اخرى كثيرة منها أن الرسول لا بد أن يكون معصوما من الخطأ فى البلاغ . وهذا البرهان موجود فى حالة السحر وغيرها . وإذا كان البرهان على العصمة مما خافوه موجوداً فى جميع الحالات لم نخش ما ذكروا ، ولم نجوزه عليه فى حين ما . ولا أظن قارئاً يتدبر ذلك جيداً ثم يشك فيه .

ثانياً — إما أن يكون لدى هؤلاء براهين على أن الرسول معصوم من الخطأ فى البلاغ ، أم ليس لديهم شىء من ذلك الا علمهم أنه لا يسحر . فان كان الأول ، فاذا يضر وجود السحر ، والبراهين المانعة من وجود ما خافوه موجودة فى الحالين ، وموجودة أبدا ؟ وإن كان الثانى قلنا لهم : ومن أين علمتم انه لا يسحر ، وانه لا يجوز أن يسحر ، وأنتم لا تعلمون عصمته إلا من عصمته من السحر ؟ أى فما البرهان على العصمة من الوقوع فى السحر ؟ أليس هذا من التدليل على الشىء بنفسه . وأيضا — على الفرض الأخير — ما الدليل على عصمته من غير السحر ، وما الدليل على أنه معصوم من الخطأ فى التبليغ ، وقد فرضنا انه لا برهان معهم على عصمته من ذلك الا قولهم انه معصوم من السحر

ثالثاً — تواترت الاخبار على ان الرسل ينسون . قال الله عن موسى (قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) وقد صح

عن رسول أنه قال «كانت هذه من موسى نسيانا» . وقال تعالى عنه وعن غلامه (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) وقال (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) وقال لخاتم الرسل (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى) وقد صح أن رسول الله عليه السلام سمع قارئا يقرأ آية فقال «ذكرنى آية كنت أنسيتها» وتواتر عنه عليه السلام أنه نسى فى صلاته ، وانه قال «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكرونى» والشبهة التى أوردوها على السحر ترد على النسيان — ان كانت صحيحة — فما كان جوابا لهم عن النسيان كان جوابا لنا عن السحر . واذا جاز عليه الاختلاط اذا سحر جاز عليه اذا نسى . فاذا احتمل أن يخيل إليه فى التبليغ فى حالة السحر جاز أن ينسى فى التبليغ ، وجاز أن ينسى بعض ما أوحي إليه وأن ينسى أشياء من القرآن والدين . واذا علموا انه معصوم من ان ينسى ذلك او شيئا منه ، فليعلموا انه معصوم من ان يقع فى التبليغ تخييل — وان خيل إليه فى غيره — والمسألتان سواء .

رابعاً — نسلم أن المسحور يمكن أن يخلط فى قوله وفعله ، كما نعلم أن الانسان يجوز أن يخطىء ، وأن يغلط ، وأن يكذب ، وأن يضل ويغوى . والرسول انسان ، وقد قلنا جميعاً إنه صلى الله عليه وسلم معصوم من هذه كلها ، مع أنها جائزة فى حق الانسان من حيث هو إنسان . فكذلك نقول : المسحور يجوز أن يخلط ، وأن يلبس عليه فى قوله وفعله ، من حيث هو مسحور ، ولكن ذلك لايجوز في حق

الرسول ، من حيث هو رسول ، وان ناله السحر

وتوضيح هذا أن نقول : أليس الرسول عليه السلام إنساناً ؟ هم قائلون بلى ولا بد . فنقول الا تعلمون أن الانسان ممكن عليه أن يضل وأن يكذب ؟ فلا بد من أن يقولوا : بلى . فنقول إذاً يمكن أن يقع ذلك من رسول الله عليه السلام لأنه انسان . فسوف يقولون : لا يجوز ذلك . فاذا قلنا لهم : ما الدليل على امتناعه ؟ فسيقولون : هو الدليل على أن الله عصمه ، وأن الرسول مشروط فى حقه ألا يقع منه شيء يخل بوظيفته . فكذلك نقول نحن فى السحر كما قالوا سواء . فنقول : المسحور يجوز عليه الاختلاط ولكن الرسول ممنوع من ذلك على أى حال ، لأن ذلك يخل بمقام رسالته . وهذا البرهان قاهر لمن تأمله

وأما الشبهة الثالثة ، وهى أن الشيطان لا يتسلط الا على الضعفة وأصحاب الغفلة فنقول :

هذه دعوى مجردة ، لا دليل يسندها ، لا من عقل ولا من نقل ، وهى خلاف المستقرأ المشهور . فقد تواتر عن الامم ، تواتراً يذيح الشك ، ان الضعيف الحقير قد يتسلط على عقول الأقوياء العظماء ، بل قد يؤثر كلام الفاجر المهين فى عقل التقي القوى ، وقد يخدعه ، ويتلاعب بعقله ، وقد يغير مجرى رأيه وفهمه ، وقد تغلب المرأة الاسيرة الكسيرة الرجل الشجاع على رأيه ، وتصرفه وفق رضاها وهواها ، وقد تدفعه فى الباطل والضلال ، فيندفع اليه — وهو يعلم انه ضلال وباطل — بضعفها ولطفها

أو ليست الخمرة ، وما أسكر ، تسلب الرشيد رشده ، وتنهب العاقل عقله ، والحازم حزمه ؟ وهل الخمر أغلب سلطانا من الشيطان والساحر . وقد قال القرآن عن أيوب عليه السلام (إني مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقص عن آدم وحواء أن الشيطان أغواهما وخدعهما وطردهما من الجنة وأخبر عن موسى عليه السلام أنه قال — لما قتل القبطى — (هذا من عمل الشيطان) وقال عنه (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى) فقد أوقعه السحرة فى التخييل والخوف . والتخييل والخوف موضعهما القلب ، وهذا من السلطان عليه . والانبياء كلهم كانوا يخافون مما يخافه البشر عادة . فالانبياء كسائر البشر ، عرضة للأعراض البشرية ، لم يتعدوا أقدارها ، إلا أن الله خصهم بالعصمة فيما يوحى إليهم (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد)

واما الاستدلال بقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فيقضى بأن يكون جميع عباد الله الصالحين ناجين من أذى الشيطان . وهذا خلاف الاجماع والمشاهد والنصوص السالفة . والآية تريد بلا شك أن عباده الصالحين يسلمون من إغوائه وإضلاله كما قال فى الآية الاخرى (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)

هذه حال شبهاتهم التى ردوا بها هذا الحديث الصحيح وهذا جوابها

وبعد فقد يمكن أن يرد على هؤلاء وأن يحتج على جواز السحر للأنبياء بقوله تعالى (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها

تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف) فقد صرحت الآية بأن سحر أولئك السحار قد أوقع نبى الله موسى فى التخييل . حتى تغيرت أمامه الحقائق ، فحسب الحبال حيات ، والساكنات متحركات . وكلما صوب إلى الحديث من نقد وشبهة يمكن أن يصوب إلى الآية الكريمة . وإذا استطاعوا أن يتسلطوا بسحرهم على حاسة بصره فيسحروها ، استطاعوا أن يتسلطوا على سائر حواسه ولا فرق ، فتتغير قدامه الأشياء ، ويظنها على غير ماهي عليه . فالآية مثل الحديث

إذاً فالحديث صحيح الاسناد والمعنى ، ولا معقول يعارضه كما رأيت . فوجب قبوله ، والإيمان به . ولقد وسع الخرق هؤلاء الذين يردون الأخبار الصحاح بأمثال هذه الشبهات الداحضة ، وجرأوا الجهال على أن يكذبوا كل ما لم يحيطوا بعلمه ، وقد ظنوا أنهم ينصرون الدين بالقدح فى الأحاديث ، والله يشهد أنهم لا ينصرونه بذلك ولكن يخذلونه والله المستعان وحسابهم على الله ونسأله أن يهديهم وأن يشفيهم هذا . ولتعلم أن فى وقوع هذه الاعراض المتنوعة بالأنبياء — وهم خير خلق الله ، وأكرمهم عليه — فوائد ترجع للعقيدة وغيرها . فان من علم بأن انبياء الله تصيبهم هذه الاعراض لم يغل فيهم كما غلت اليهود والنصارى فى أنبيائهم واحبارهم ورهبانهم ، فان من ظهر الضعف وأمارات العبودية والافتقار عليه ضعف الافتتان به ، وقل الغلو فيه . وظهور القوة والكمال فى الانسان يوقع فى الغلو فيه . وما ألّه النصارى المسيح وأمه إلا لأجل ما وهبه الله من آثار القوة ، مثل احياء الموتى وغيره .

والغلو في العباد خطر على العقيدة . خطر على الايمان . وما غير التوحيد سواه . ولولاه ما رأيت هؤلاء الطائفين بالأضرحة والقبور ، ولما رأيت هذه الفتنة العظمى بالمشايخ والاولياء رضي الله عنهم ، التي كادت تكون عامة في الأمم الاسلامية . ولولا الغلو لما ارتطم المسلمون فيما قال حافظ ابراهيم يخاطب الشيخ محمد عبده :

إمام الهدى اني أرى الناس أحدثوا ... لهم بدعاً عنها الشريعة تعزف
رأوا في قبور الميتين حياتهم ... فقاموا الى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها عاكفين كأنهم ... على صنم في الجاهليه عُكَّف

وما ذكر القرآن الكريم عن الانبياء تلك الأمور التي عاتبهم عليها للتشهير بهم ، والاشادة بأخطائهم ، بل ما ذكر ذلك الا لأجل ماذكرنا . ومن أجله يقول القرآن ، آمراً افضل خلقه وخاتم رسله عليه السلام (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا) . قل ما أنا الا انسان مثلكم أمرض كما تمرضون وأجوع كما تجوعون وأخاف كما تخافون وأموت كما تموتون . وأما المنزه عن ذلك كله فهو الله سبحانه ، وهو إله واحد لا شريك له في ذلك ، فاعبدوه وحده ودعوا ما سواه

وكم ردد القرآن أن الأنبياء يقتلون ، ويطردون ، ويسخرون ، ويهانون ، ويمرضون ، ويخافون ، وينال منهم أبلغ الأذاة . ولله في ذلك كله بالغ الحكمة . ومثل هذا حديث السحر . وكم يرد هذا الحديث على

هؤلاء الذين حسبوا أن الله قد وكل التصريف إلى رسوله ، وإلى من هو دونه ، ووهبه القدرة المطلقة ، فراحوا يسألونه كلما يحتاجون إليه ، ويضرعون إليه . عند ما ينزل بهم نازل ، راغبين راهبين ناسين أنه عليه السلام ما كان يقدر على الدفع عن نفسه الشريفة حتى ضربوه وأخرجوه وسحروه وبلغوا منه أقصى الأذى وهو فى كل ذلك عاجز مفتقر إلى الله . وأين هذا من قول ذلك الشاعر :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلا وإلا فقل يازلة القدم

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

يا سبحان الله ! ما أعظم جهل الإنسان وأشد غفلته ! ولو قرأ المسلمون نصوص دينهم ، وفهموها ، وتدبروها ، وعلموا آثار رسولهم ، وما كان يلاقيه ويصاب به ، وعلموا توحد الله بكل كمال دون الأنبياء والأولياء والملائكة لما أصاب عقيدتهم ما أصابها من تضعضع وخرافات وشبهات . فحديث السحر ونظائره يقوى الايمان والتوحيد ، لا كما ظن هؤلاء أن فيه خدشا للدين وأصوله

حديث الذباب

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه فيه ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفى الآخر داء » رواه البخارى وغيره . ورواه أيضاً ابن ماجه والامام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولفظه قال: قال رسول الله ﷺ « فى أحد جناحى الذباب سم وفى الآخر شفاء فاذا وقع فى الطعام فامقلوه فيه فانه يقدم السم ويؤخر الشفاء »

وهذا الحديث صحيح الاسناد لا مقدح فيه لقادح . وقد أنكره قوم طبيا ، وقالوا : ان الذباب يقع على الاقذار والاوساخ الملوثة بجراثيم الامراض ، فيأكل منها ، ويحمل بأطرافه ، فاذا وقع فى الطعام ، أو فى الشراب رمى فيه من تلك الجراثيم والاقذار التى حملها ، فصار الطعام وباء لايجوز تناوله . قالوا : ثم ان الحديث لم يقتصر على ذلك ، بل حض على التزيد من تلك الجراثيم ، فأمر أن يغمس باقى الذباب فى الطعام أو الشراب ثم يؤكل . قالوا : ومثل هذا كيف يأتى اليه الشفاء ؟ ! وهل هذا إلا مثل أن يقال : إن فى الزبالات المطروحة فى الحارات شفاء ودواء ؟ ! فليس بمكن أن يكون هذا الحديث صحيح المعنى ، وليس بجائز أن يكون رسول الله قاله . ولئن كان قاله ليكونن مخطئا فيه ، وليكونن من قبل الرأى الذى ليس معصوماً فيه . قالوا : والأنبياء قد يخطئون فيما قالوه رأيا لاماقالوه وحيا . وليكونن كحديث تأبير النخل .

قالوا : وقد قرر الأطباء أن جيوشا عظيمة فتك فيها الذباب ، وجعلها فريسة المكروبات التى حملها ورماها فيما يأكلون ويشربون . هذا تلخيص شبهتهم فى إضعاف هذا الحديث الصحيح

ونحن نقول على ذلك : لاريب أن الذباب يحمل الجراثيم الفتاكة ويلقيها فيما يقع عليه من طعام وشراب وغير ذلك . والحديث مقر بهذا مثبت له ، لأنه يقول « فى أحد جناحيه داء » وفى الرواية الأخرى «سم» هذا حق لا نزاع فيه . وانما الذى يقرره الحديث فوق ماعرفوا أن فيه شفاء أيضا لذلك الداء ، أى هو يحمل مرضاً ويحمل علاجه ، ويحمل سما وترياقا . فمن أين علم هؤلاء أن ذلك الدواء الذى رواه الحديث ليس موجوداً فى الذباب ؟ ! ومن أين علموا أن الذباب لايحمل شفاء ؟ ! إن جهلهم لذلك لايدل على عدمه فى نفسه . وهم يعرفون أن عدم العلم بالامر لايدل على أنه مفقود فى الواقع . هم لايستطيعون أن يدلوا بدليل واحد على فقده البتة ، وانما الذى يستطيعون أن يدلوا به والحديث يسلمه لهم — أن الذباب يحمل داء فحسب . وما ذكر ليس مما يدفعه العقل أو الطب . لايدفع العقل ولا الطب أن تجتمع المتضادات فى الأمر الواحد ، والجسم الواحد . والطب الحديث يقرر أنه يوجد فى الخنزير علاج لبعض الأمراض ، كما يقرر أن فيه مكروبات قتالة ، وانه يوجد فى كثير من الحشرات علاج لكثير من الأمراض ، وانه يوجد فى الأفاعى وغيرها منافع . وقد قرر الطب الحديث أن بعض المكروبات يقتل بعضا ، وان بعضها يموت بما يحيى به الآخر ، وقرر

أنه اذا أريد الوقاية من بعض الأمراض ، كالجدرى ، والحصبة ، وغير ذلك يطعم الحيوان أو الانسان بسم ميكروب ذلك المرض فلا يناله المرض باذن الله . أى يؤخذ مكروب مرض الجدرى ، ويوضع فى سائل مدة ، ثم يصفى ذلك السائل من الميكروب بعد أن يقذف فيه سمه ، ثم يحقن الحيوان أو الانسان بهذا السائل فيتكون فى ذلك المحقون مادة سامة مفترسة لميكروب ذلك المرض نفسه ، فلا يصيبه . بل إذا أريد حماية السليم من الطاعون حقن جسمه بميكروبات الطاعون المماتة بالحرارة ، فتكون عند ذلك المحقون مناعة من الطاعون . ومثل الطاعون مرض الهيضة . بل من الأمراض ما تحقن ميكروباته وهى حية فى الانسان للوقاية من المرض ، وذلك مثل مرض الكلب . وهذا كله من معالجة الداء بالداء . ويستظرف هنا قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقول الآخر : وداونى بالتى كانت هى الداء

وقول الثالث : فربما صحت الأجساد بالعلل

ومن الامراض ما إذا أصاب مرة واحدة لم يصب أخرى . ومنها ماذا أصاب منع غيره . إذاً ليس غريباً أن يكون بعض ما يحمل الذباب من الأمراض يفترس أنواعا أخرى منها . وليس محالا أن يكون فى أحد جناحي الذباب حيوانات صغيرة تقتل حيوانات أخرى . هذا أمر ليس محالا ، وليس مفرداً فى بابه . وقد أخبر به الصادق الذى (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) والذى قامت البراهين الحسية

والعلمية على أن كل ماصح سنده عنه من شئون الدنيا والدين والطب حق وكلما يتقدم الزمن يظهر صدقه . ولو أخبر هؤلاء أحد أطباء الإفرنج بما دل عليه هذا الحديث لما كذبوه ، بل لما شكوا فى صدقه . أوليست الحية قد جمعت فى جسمها داء ودواء ؟! ففيها السم القاتل ومن لحمها يركب الترياق الذى يقى ضرر السم ؟! وكذلك النحل فان فى أحد طرفيه العسل وهو شفاء وفى الطرف الآخر ما يخرج منه وهو داء . فحديث الذباب له نظائر كثيرة معروفة

تصحيح الطب الحديث لهذا الحديث

معجزة للاسلام ونبيه

هذا الذى قدمناه كله على سبيل التقريب ودفع الغرابة والاستحالة أما تصديق الحديث بالنص فهاك ما يأتى : —

ألقى طبيب عصرى فى جمعية الهداية الاسلامية منذ سنة وكسور محاضرة جاء فيها ما حاصله :

« يقع الذباب على المواد القذرة المملوءة بالجراثيم التى تنشأ منها الأمراض المختلفة ، فينقل بعضها بأطرافه ، ويأكل بعضاً ، فيتكون فى جسمه من ذلك مادة سامة يسميها علماء الطب بمبعد البيكتريا ، وهى تقتل كثيراً من جراثيم الأمراض ، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى حية أو يكون لها تأثير فى جسم الانسان فى حال وجود مبعد البيكتريا. وإن هناك خاصة فى أحد جناحي الذباب هى أنه يحول البكتريا إلى ناحيته.

وعلى هذا فاذا سقط الذباب في شراب أو طعام ، وألقى الجراثيم العالقة بأطرافه فى ذلك الشراب فان أقرب مبيد لتلك الجراثيم ، وأول واق منها هو مبعد البيكتريا الذى يحمله الذباب فى جوفه قريباً من أحد جناحيه . فاذا كان هناك داء فدواؤه قريب منه وغمس الذباب كله وطرحه كاف لقتل الجراثيم التى كانت عالقة ، وكاف فى إبطال عملها »

هذا ملخص ما قاله ذلك الدكتور المصرى

وفى مجلة التجارب الطبية الانجليزية عدد ١٠٣٧ سنة ١٩٢٧ ما ترجمته :

« لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض ، وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم ، واختفى أثرها ، وتكونت فى الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى بكتريوناج . ولو عملت خلاصة من الذباب فى محلول ملحى لاحتوت على البكتريوناج التى يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوناج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع أخرى للجراثيم » .

وقد كتب بعض الأطباء الغربيين نحو هـذا . فأصبح هذا الحديث الذى عده هؤلاء المتسرعون كذباً وخدشاً في الدين صحيحاً ومعجزة علمية خالدة . فلعلهم بعد هذا يقللون من تسرعهم فى إصدار الأحكام ، وفى تكذيبهم مالم يحيطوا بعلمه . فمن أين لابن الصحراء هذه المسائل الدقيقة الطبية لولا أن الله يوحى إليه ؟ !

وأما قول هؤلاء على الحديث : إنه من أمور الدنيا التى يجوز أن يخطىء فيها الرسول عليه السلام . فيقال : هل مثل هذا يقال رأياً بدون وحى ؟! ولو قاله بعض الصحابة أو التابعين لقلنا إنه تلقاه ، وإن حكمه حكم المرفوع ، ولا يمكن أن يكون قاله اجتهاداً ، إذ لا يمكن أن يقول ذلك تهجما من غير رواية . وكل العلماء يقولون ذلك فى أمثاله . وبالبت شعرى كيف قال ذلك وهو يجهله ؟! وكيف عرض أمته لخطر الذباب وما فيه من أمراض ؟! ومن الذى اضطره إلى أن يتهجم على أمور لا يستقل العقل والرأى بادراكها وفهمها ؟! وكيف يعالج أمته وهو جاهل بأوليات الطب الضرورية ؟! والعلماء يقولون : إن من تعاطى الطب وهو جاهل به فهو ضامن . وروى عنه عليه السلام أنه قال « من تطبب ولم يعرف له طب فهو ضامن » . والحكومات تعاقب اليوم فاعل ذلك . نعوذ بالله ! لقد نسبوا أكمل الخلق وأعقلهم إلى مالا يصح من عاقل . ثم لماذا لم يسمه السكوت عما لا يعلم ؟! أليس ذلك أحوط وأحكم والله يقول (ولا تقف ما ليس لك به علم) ؟! ونحن نعلم أن الذين وصموا رسول الله عليه السلام هذه الصمة ، وقالوا إنه قال ذلك برأيه لا يمكن أن يقولوا مثله من قبل عقولهم وآرائهم ، بل إن تورعهم وخوفهم من الانتقاد يمنعهم من ذلك الهجوم . أوما كان اللائق به ـ اذا كان الامر كما يزعم هؤلاء ـ ان يقول : اظن كذا كما قال فى خبر تأبير النخل ، لا أن يصدر كلامه فعل الموقن العالم ؟! وإذا كان مخطئا كما توهموا فلماذا لم يرد الله عليه خطأه بعد ؟! وهل يقره على

خطأ ، وهو الأسوة الامام ؟ ثم إن مقالة هؤلاء قد تدفع غيرهم يوما إلى ان يقولوا : إن جميع أبواب الربا والبيوع والمعاملات والعقوبات الموجودة في السنة هي من هذا القبيل ، هي من أمور الدنيا التي نحن اعلم من الرسول بها . فليس بلازم أن يكون الصواب حليفه فيها ، ولا لازم ان نتبعه فيما قال ، بل وتدفعهم إلى أن يقولوا : إن كل ما في الأحاديث من أحوال الاسم الماضية والآتية ، وكل ما ذكر قبيل الساعة من الأهوال والأشراط ، وما ذكر في الآخرة من الأمور الشديدة : إن ذلك كله قد قاله الرسول رأيا ، كما قال هؤلاء في الحديث المذكور

إن تكذيب هذا الحديث ، ورمي جميع رواته بالكذب والخطأ لأيسر عندي من أن يقولوا مقالتهم هذه . وما ظنهم لو قال احد مثل قولهم هذا أمام أبي بكر الصديق ، أو عمر بن الخطاب ، أو غيرهما من الصحابة رضي الله عنهم ؟

إذاً لقد صح هذا الحديث ، وأصبح معجزة من معجزات الاسلام العلمية الخالدة .

حديث تأبير النخل

عن طلحة قال : مررت مع رسول الله بقوم على رءوس النخل فقال « ما يصنع هؤلاء » فقلت يلقحونه فقال رسول الله « ما اظن يغني ذلك شيئاً » قال : فأخبروا ، فتركوه ، فأخبر رسول الله بذلك فقال « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا ، فلا تؤاخذوني بالظن ،